

بناؤ النفوس

عبد الحميد كشك

بناء النفس

المكتبة المصرية الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

« ونفس وما سواها ۝ فأنشأها فجورها و تقواها ۝
قد أفلح من زكاها ۝ وقد خاب من دساها ۝ »
(قرآن کریم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام
أمير الأنبياء وإمام المرسلين . وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ،
وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله : خاتم
الأنبياء والمرسلين ، صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين ،
وعلى آله وصحابه الغر الميامين ، وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا
وأموات المسلمين أجمعين .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن
بك ونتوكل عليك ، ونثقي عليك الخير كله . . نشكرك ولا نكفرك ،
ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد . ولك نصلي ونسجد ،
نسعى ونخفد نرجوا رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد
بالكفار ملحق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد :

فإني أهدي كتابي هذا (بناء النفوس وأثره في التربية) إلى جماعة
المؤمنين : إذ أنه يشتمل على الإيمان وعظيم أثره في بناء النفوس ،

والإيمان : مصدر السكينة ، وهى الطاقة الربانية الدافعة إلى زيادة الإيمان .

أهديه إلى المؤمنين : أذكرهم فيه بنعمة الله ، المتمثلة فى قوله جل شأنه :

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) .
كما أهديه إلى كل نفس يحاول اليأس أن يأخذ طريقه إليها ،
فتظلم الحياة أمامها ، وتضطرب فى خضم محيطها . . إذ أن اليأس مهلكة
وتحطيم ، ولكنه لا يجتمع مع الإيمان فى قلب واحد ، وسرعان
ما يتلاشى شبحه ، ويزول أمام قوة الإيمان ونور التوحيد ، متمثلاً فى
ذلك قول الله جل شأنه ، حكاية عن يعقوب عليه السلام : (يا بنى
اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ،
إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

كما أهديه إلى الحائرين فى دياجير الحياة ، ولا يقضى على الحيرة
فى النفس ، إلا أن تجد قدوة صالحة تحتذى خطاها ، وأسوة حسنة
تنهج على منوالها ، متمثلاً فى ذلك قول جل شأنه : (لقد كان لكم فى
رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله
كثيراً) .

وإننى لأسأل الله من خالص قلبى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم . .
فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

والله المستعان ، وعليه التكلان .

المؤلف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، جعل مع الصبر نصراً ، ومع الضيق فرجاً ،
ومع كل شدة مخرجاً ، ومع العسر يسراً ، وجعل لكل بداية نهاية :
فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من
دخول القبر .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من استعز به ألبسه ثوب العزة وأغناه عن
الناس . . قيل لتقى الدين الحسن البصري رضى الله عنه : ما سر زهدك
فى الدنيا ؟ فقال أربعة أشياء : علمت بأن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن
قلبى ، وعلمت أن عملى لا يقوم به غيرى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله
مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى
فأعددت الزاد للقاء الله ! .

يا أخا الإسلام :

سهرت أعين ونسامت عيون فى شئون تكون أولا تكون
إن رباً كفأك بالأمس ما كان ، سيكفيك فى غد ما يكون !

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحيينا محمداً رسول الله ، وقف
مواقف الأبطال فى ساعات الشدة . . فعندما صمتت الألسنة ، ونطقت

الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب : وقف في حومة
الوغي ، يدفعه إيمانه ، وتحفزه عقيدته يقول : « أنا النبي لا كذب ،
أنا ابن عبد المطلب » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الحق أنت ، وأنت إشراق الهدى و لك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقهها بها من الأهوال والظلمات !
صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم ، وما ناحت على
الأبك الحماهم .

أما بعد :

فقد أُلقيت نظرة في رحاب الكون ، وطاف الفكر بأرجاء
الحياة ، فوجدت هذه الدنيا مليئة بالزخارف البراقة التي تخدع
النفوس ، ورأيت لماديات الحياة تأثيراً قد بلغ مداه في الأعماق ،
فانصرف بعض النفوس عن طريق الجادة ، وتنكبت نفوس أخرى
الضراط السوى ، فاهتزت هذه واضطربت تلك . . ذلك لأن الدنيا
إذا تملكك النفوس ، وتربعت على عرش القلوب ، حجبتها عن
رؤية الحقيقة العليا ، فترى هذه النفوس حائرة : مرة تتخبط في دياجير
الظلام ، وتراها يائسة مرة أخرى . . فهي في حالة السراء جاحدة ، وفي
حالة الضراء يائسة ، وكلا الأمرين أحلاهما مر : (إن الإنسان خلق
هلوغاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً) .

ثم استثنى الله جل شأنه من هذا النوع نوعاً جديراً بالسعادتين :
 الدنيوية والأخروية ، فقال في شأنه . (إلا المصلين • الذين هم على
 صلاتهم دائمون • والذين في أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم •
 والذين يصدقون بيوم الدين • والذين هم من عذاب ربهم مشفقون •
 إن عذاب ربهم غير مأمون • والذين هم لفروجهم حافظون • إلا على
 أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين • فمن ابتغى وراء ذلك
 فأولئك هم العادون • والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون •
 والذين هم بشهاداتهم قائمون • والذين هم على صلاتهم يحافظون •
 أولئك في جنات مكرمون) .

يا أخا الإسلام :

قد يكون بناء القصور وتشيد البروج وناطحات السحاب أمراً
 سهلاً يرجع إلى المهارة في فن المعمار ، ولكن : ما أصعب بناء
 النفوس : فإن بناءها سر من الأسرار الذي لا يقوى عليه إلا الذين
 صبروا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله . . إذ أن هذه رسالة الأنبياء
 وغاية المخلصين ، وتجارة مع الله لكل من دعا إلى الله وعمل صالحاً
 وقال إنني من المسلمين .

ولذلك فإن بناء النفوس وتشيدها على أساس الحق ، وتركيتها
 بالصلاح والطهر ، مطلب عظيم ، وغاية عليا ، وهدف من أعز
 الأهداف . .

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في مسجد النبي صلوات الله وسلامه عليه يقول لبعض الصحابة : ليذكر لي كل منكم أعظم شيء يتمناه ، قال أحدهم : أتمنى أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقته في سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى أن يكون لي ملء المدينة خيلاً أغزو به في سبيل الله ، وقال ثالث : أتمنى أن يكون لي ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله . . وأخذ كل منهم يذكر ما يتمنى ، وأمير المؤمنين يدبر النقاش بينهم ، ثم توجهوا إليه قائلين : فإذا تمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبي بكر الصديق رضى الله عنه ! !

طيب الله ثراك يا عمر : فقد أصبت كبد الحقيقة ، وتمنيت المطلب الأعظم ، فأمثال أبي بكر — من ذوى النفوس المطمئنة ، والأفئدة البصيرة — هم الذين يملأون الكون أمناً وسلاماً ، ورحمة ووثاماً ، وإعزازاً وإكراماً . . لأنها نفوس كان الحق هدفها ، والخير غايتها ، والقرآن إمامها والرسول أستاذها . . نفوس كان أساسها توحيد الله ، وسلوكها طاعة الله !

إنه اليقين إذا عمر القلوب ، والإخلاص إذا أضاء النفوس ! !

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) .

ما أعظم الإيمان في بناء النفوس ، وما أجل رسالة التوحيد في
تقويمها : (ونفس وما سواها . فأنهها فجورها وتقواها . قد أفلح
من زكاها . وقد خاب من دساها) .

فاللهم إنا نسألك العافية في الدين والدنيا ، والعصمة من كل ذنب .
والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر .

عبد الحميد كشك

العقيدة وأثرها في التربية

إذا بلغت النفس البشرية المؤمنة الذروة في الاقتناع ، فإنها تصبح أشد ثباتاً من الجبال الشم والرواسي الشاخات ، وإن أجل مثل يوضح لنا هذه القضية موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم أحاطت به الأشرار تحاول أن تطغى جذوة الإيمان ، فإذا قال ؟ قال كلمته المشهورة التي طالما اهتزت لها أعواد المنابر ، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، قال بلسان الحق . . « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ! » .

صدق يا سيدي يا رسول الله حين قلت ، وعدلت حين حكمت ، وصبرت حين ابتليت ، وشكرت عندما أعطيت ، وغفرت حينما ظلمت . . فعليك صلاة الله وسلامه ، يا من قلت : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

إن أثر العقيدة في التربية بعيد المدى ، شديد القوى . . فالنفس صاحبة العقيدة : راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، لا تعبأ بكوارث الأيام وشدائد الحياة ، ولا تنوء تحت الهموم الثقيل ، لأنها تحمل بين جنبها عقيدة الحق : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، ولأنها واثقة أن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه عين ، ولا يحدث

فيه حدث - صغير أو كبير - إلا بإذن الله : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) .

التربية في مكة

إن الناظر المتأمل في الفترة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة - وهي ثلاثة عشر عاماً - يجد أنها قامت في نهجها على أساسين ، أكيدين ، ومبدأين راسخين :

المبدأ الأول : العقيدة ، وتركز في الدعوة إلى الوحدةانية والإيمان بالبعث .

المبدأ الثاني : يتمثل في تركية النفس وتطهيرها بالقيم الأخلاقية والمثل العليا ، وفي ذلك المبدأ يقول القرآن الكريم : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالأولادين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به

لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

مبدأ التوحيد

وفى مبدأ التوحيد : تتضافر آيات الكتاب العزيز بأدلتها الصريحة الحازمة ، القطعية الثبوت . وليس ثمة أدنى شك أن التوحيد دين الفطرة . قال جل شأنه : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، وخاطب القرآن ذوى الأفهام الباصرة فقال سبحانه : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) وقال تعالى ، وهو يخاطب ذوى العقول والبصائر : لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون .

ثم يؤكد هذا الجانب تأكيداً ينسجم تمام الانسجام مع ذوى الأبواب فيقول سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة ، فتعالى عما يشركون) .

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لقال : أنا مخلوق للواحد الديان ! ! فما هذه المبدعات الإلهية ، والآحاد الكونية إلا كلمات ناطقات بلسان أقوى من لسان المقال ، بأن الله واحد لا شريك له : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله

مدداً . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان
يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

واسمع إلى قوله جل جلاله : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة
أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر : ما نفدت كلمات الله ،
إن الله عزيز حكيم) .

أخا الإسلام : .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك ! !

فالله جل جلاله واحد فى ذاته لا قسم له ، واحد فى صفاته لا شبه
له ، واحد فى أفعاله لا شريك له .

وقد ألقى القرآن باللائمة ونعى على الذين وصفوا الله بأن له ولداً ،
فقال سبحانه : (بديع السماوات والأرض : أنى يكون له ولد
ولم تكن له صاحبة ؟) وقال جل فى علاه : (وقالوا اتخذ الرحمن
ولداً . لقد جنتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض
وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن
يتخذ . لداً) .

وهذا نفر من الجن بعد أن استمع إلى القرآن الكريم أشرق قلبه بنور
التوحيد فقال : (إنا سمعنا قرآناً عجياً . يهدى إلى الرشـد فآمنا به ،

ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جدر بنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) .
والله جل جلاله تنزهه عن الجسمية ، فليس — سبحانه وتعالى —
بجسم ، ولا معلود ، ولا محدود ، ولا متبعض ، ولا متجزى ،
ولا متلون ، ولا متكيف ، ولا يسأل عنه بمى كان : لأنه خالق
الزمان ، ولا بأين هو : لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك ، فالله
تعالى بخلاف ذلك . . وفى ذلك يقول تبارك وتعالى قولاً فصلاً :
(ليس كمثله شئ ، وهو السميع البصير) .

والوحدانية هى نداء الفطرة السليمة التى لم تكدرها انحرافات
الهوى ، ولم تغيرها اتجاهات مريضة . .

. . .

وكأنى بذلك الأعرابي ، الذى كان له صنم يعبد به ويقدم له واجبات
التقديس والولاء . . يأتى ذات يوم ليسجد أمام صنمه فيجد به بللا
غزيراً ، فيقف عاجباً : ما الذى أحدث البلل بهذا المعبود ؟ ويلتفت
حواليه ، فيجد ثعلبين يلعبان بالقرب منه ، فيعلم أنهما (بالآ) على
صنمه ! ! وعندئذ عاد إلى فطرته السليمة ، وأنشد قائلاً :

رب يبول الثعلبان برأسه ؟	لقد ذل من بالثعلب عليه الثعالب !
فلو كان رباً كان يمنع نفسه ،	فلا خير فى رب نأته المطالب !
برئت من الأصنام فى الأرض كلها	وآمنت بالله الذى هو غالب !

. . .

كل مولود يولد على الفطرة

لقد أخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم بأن : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرناه » . ويقول ربنا تبارك وتعالى في الحديث القدسي الجليل : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » .

أنا الإسلام :

يكفى كلمة التوحيد شرفاً وقدرًا أنها رسالة الأنبياء جميعاً ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله » .

• • •

والعقيدة الصحيحة للمؤمن أن يؤمن إيماناً حقاً لا حدود له بأن الله خالق كل شيء ومقدره : يقول تعالى في الحديث القدسي الجليل : « يؤذني ابن آدم : بسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » ! !

فليس لنا أن نلقى باللائمة على الأيام والليالي ، فإنها من خلق الله ، وهذا معنى قوله تعالى في الحديث : « وأنا الدهر » ، أى خالقه : (الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل) ، (يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ، (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

أخا الإسلام :

عش راضياً واترك دواعي الألم واعدل مع الظالم ، مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش فيها كريماً ، واعتبرها عدم
۔ ۔ ۔

العقيدة الصحيحة

العقيدة الصحيحة هي التي لا يختلج قلب صاحبها شك في قدرة الله وعظمته ويوم يتسرب الشك إلى قلبه فقد وقع تحت طائلة المقت والغضب ، وهذا هو حديث ربنا جل في علاه يقول فيه : « كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ، ولم يكن له ذلك : أما تكذبيه إياي فقله : لن يعيدني كما بدأتني ، وليس أول الخلق بأهون على من أعادتهم ، وأما شتمه إياي فقله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ، ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد » .

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له طوبى لمن عاش بين الناس يهواك !
إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً من فيض جودك ربى - كيف ينساك !
والله ما سعدت روحى ولا فرحت في الدهر - ما بقيت - إلا بذكراك !

والعقيدة الصحيحة تقتضى من صاحبها ألا يسند الأمور لغير الله :
فإنه هو الخالق الذى لا يشاركه فى خلقه أحد ، فمن أسند الأمور
فى إيجادها وتقريرها وتديرها وتصريف شؤونها ، فقد أصيب فى
عقيدته بما يدعو إلى وجوب تصحيحها : ذلكم الله ربكم لا إله هو
خالق كل شئ فاعبدوه ، وهو على كل شئ وكيل .

وقد جاء فى الحديث الشريف عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله
عنه قال : صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية
على إثر سماء كانت من المدينة ، فلما انصرف النبى صلى الله عليه
وسلم أقبل على الناس فقال لهم : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا :
الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر ،
فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بى ، كافر
بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا : فذلك كافر
بى ، مؤمن بالكواكب .

وفى هذا الحديث الشريف ما يرشد إلى أن الذين أسندوا فعل المطر
إلى فضل الله ورحمته : كانوا مؤمنين بالله (وهو الذى ينزل الغيث
من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد) . وأما الذين
أسندوا إنزال المطر إلى كوكب من كواكب السماء فقد تنكبوا الجادة
وحادوا عن الصراط السوى : فالكواكب وغيرها من المخلوقات
لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فهى من باب أولى لغيرها كذلك .
« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر : لا تسجدوا للشمس ولا
للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » .

أخا الإسلام :

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضاء
ولرب أمر مسخط لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضاً

. . .

العقيدة . . ومراقبة الله تعالى

أخي القارئ الكريم ، لما كانت العقيدة هي مركز الدائرة التي تدور حوله شعائر العبادات ومبادئ الأحكام وقواعد النظام ، فقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يحيط ذلك المركز بسياج منيع وأسوار عالية لا يستطيع الشك أن يلتقي ببذوره في ساحتها المقدسة ، أو أن يقتحم عليها حصونها المكيئة .

اقرأ معي قول الله تبارك وتعالى ، حيث يؤكد لعباده المؤمنين أنه محيط بكل شيء :

« ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » .

فهذه الآية بجلالها وعظيم شأنها تملأ قلب المؤمن بمراقبة الله تعالى وهيمنة سلطانه ، وإطلاعه على الخفايا والأسرار ، وبمكنون الصدور والأخبار . . ثم اقرأ قوله جل شأنه : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » .

(ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) فإذا قال لهما عالم الغيب والشهادة (قال : لا تخافا : إننى معكما أسمع وأرى)

وما أجل قوله تعالى في الحديث القدسى الجليل : « ما وسعنى أرضى ، ولا سماءى ، وإنما وسعنى قلب عبدى المؤمن » !

فإذا ما حاول الشيطان أن يرسل وساوسه كالطفيليات التى تحاول أن تتغذى على حساب النبات الصالح - فعلى صاحب العقيدة الصحيحة أن يستعيز بالله منه ولا يعبأ لو وساوسه : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » .

وفى حديث آخر : « هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً : فليقل آمنت بالله » !

• • •

الداء والدواء

صدقني يا سيدى يا رسول الله ، يا من كنت تشخص الداء وتصف الدواء ، فليس أمام وساوس الشيطان وحربه النفسية إلا أن يستعصم الإنسان بربه ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، فما تكون وساوسه بعد ذلك ؟ إنها كذبابة تحاول أن تحجب بجناحها ضوء الشمس أو نور القمر . . وما يكون كيده بإزاء قلب امتلاً بتوحيد الله ؟ إنه مهما حاول بوساوسه أن يغير أو يبدل هذه القلوب ، فإن مثله (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ما هو ببالغه) ، وسرعان ما يندحر مخذولاً محسوراً ، كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، أو كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

الله ربى لا إله سواه هل فى الوجود حقيقة إله ؟ !
يا من له وجب الكمال لذاته الكل غاية فوزهم لقياه !

. . .

الإيمان والإخلاص

الإخلاص : شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

والرياء : شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . .

القلوب المخلصة ترسل أشعتها فتضيء للناس طريق النجاة .

والقلوب المرائية تفرز سواداً قائماً وظلمة حالكة تنعثر المجتمعات في سرايب ضلالها .

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالإخلاص — فقال للمبعوث رحمة للعالمين . (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) . وقال : (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين) ، وقال : (قل الله أعبد مخلصاً له ديني) ، وقال سبحانه (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) .

فالإخلاص هو الروح السارية في الإيمان عقيدة أو عبادة أو معاملة ، وبغير الإخلاص تصبح أعمال المسلم نواة لا روح فيها .

وليس أدل على ذلك من أن الله مدح المخلصين بقوله ، (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً) .

وألقى القرآن باللوم الشديد والزجر العنيف على هؤلاء الذين يراءون الناس ولا يبتغون بأعمالهم ما عند الله ، فقال سبحانه : (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

فما هو الإخلاص ؟

الإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله وحده لا شريك له ، ومن ثم : فقد أوصى الله ورسوله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين قال فيهم : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) .

وقطع القرآن الحيل المراوغة التي أراد بها أهل الباطل أن يباعدوا بها بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء المخلصين المتواضعين ، فقال في كتابه العزيز : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وأوصاه بهم خيراً فقال : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبسط لهؤلاء النفر رداءه ليجلسهم عليه ويلقاهم مرحباً بهم فيقول : « مرحباً بمن أوصاني ربي بهم خيراً » !

• • •

وهذه درجات المخلصين بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

« طوبى للمخلصين : أولئك مصابيح الهدى ، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء » .

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وليس أمر الإخلاص في النية قاصراً على الدنيا وحدها ، بل إنه يمتد أثره إلى ما بعد الموت . . فالناس يبعثون على ما ماتوا عليه . فإن كانت نياتهم مخصصة لله بعثوا يوم القيامة مع المؤمنين الناجين من عذاب الله ، وإن لم تكن النيات مخصصة فالويل والعذاب . .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يغزو جيش الكعبة : فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ، قالت : قلت يا رسول الله : كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » .

تأمل هذا الحديث الشريف : تجد أن الجيش الذى سيغزو بيت الله الحرام سيخسف به قبل أن يحقق ما يريد من البغى والإفساد ، وسيموت معه قوم ليسوا منهم ، والنيات هى التى ستكون فيصلاً حاسماً وحازماً فى الأمر ، وإن كان الجميع قد مات ، إلا أن مدار الجزاء : على النية . . فالنية السيئة تهوى بصاحبها إلى أسفل الدرجات ، والنية المخلصة ترفع أهلها إلى أعلى الدرجات .

بل لقد شاء الله الكريم - بفيضه وجوده - أن يجرى الثواب ويمنح الحسنات لقوم لم يستطيعوا أن يشاركوا فى الأعمال الجليلة : لأن الأعذار منعتهم وكان فى نياتهم لو استطاعوا لفعلوا . . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر أصحابه فيقول لهم وهم فى إحدى الغزوات : إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم : حبسهم المرض « وفى رواية : « إلا شاركوكم فى الأجر » .

ولذا قال القائل :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتهم جسوماً، وسرنا نحن أرواحاً
لقد أقننا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

• • •

والإخلاص فى النفقة - حتى على أهل الدين تجب لهم النفقة - يجعل لصاحبها ثواب الصدقة ، قال صلى الله عليه وسلم . « إذا أنفق المسلم على أهله نفقة ، وهو يحتسبها : كانت له صدقة » .

وكل ما يقصد الإنسان به وجه الله من الخير فهو صدقة ، وأجر وثواب وذخر ، وما هو ذا سعد بن أبي وقاص يروى لنا هذا المشهد فيقول : جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت يا رسول الله : إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا أبنائي ، أفأتصدق بثلاثي مائة ؟ قال لا ، قلت . فالشطر يا رسول الله ؟ فقال لا ، قلت فالثلث يا رسول الله ؟ قال : الثلث ، والثلث كثير ، أو كبير — إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في (في) إمرأتك « أي فيها .

ولكون الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال : نسمع أبا هريرة رضي الله عنه يروى فيقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

ولقد كان المسيح عليه السلام يقول : « يا بني إسرائيل : لا تأتونني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألبسوا قلوبكم بخشية الله » .

أخا الإسلام :

ودع الكذب فلا يكن لك صاحباً إن الكذب يشين حراً يصحب

يلقاك يقسم أنه بك واثق وإذا تواری عنك فهو العقرب
يسقبك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

• • •

صدقت يا سيدى يا رسول الله يا من قلت : « ولكن ينظر إلى
قلوبكم » ، فقد قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « الإخلاص سر
من أسرارى ، استودعته قلب من أحبت من عبادى ، لا يطلع
عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده » .
أخا الإسلام :

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفاً فدعه ، ولا تكثر عليه التأسفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير فى ود يجيء تكلفاً
ولا خير فى خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشاً قد تقادم عهده ويظهر سراً كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق وفى يصدق الوعد منصفاً

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، يا من قلت : « لا تصاحب
إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » ، ويا من قلت : « المرء على دين
خليله ، فلينظر أحدكم من يخال » .

الإخلاص في الجهاد

إن الإخلاص يأخذ مكانته اللائقة به في كل شيء ، بل وفي أخطر الأشياء : في الجهاد ، الذي نسترخص الأرواح في أسواقه ، والذي نجود فيه بالمهج والنفوس !

لقد قال الصادق الأمين بعد أن هاجر إلى المدينة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » أى لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ، ولكن يدور الأمر على الجهاد المقترن بالنية المخلصة ، فلو لم تكن هناك نية فلا جهاد ، والجهاد هنا بمعناه الواسع : جهاد الكلمة ، جهاد النفس ، جهاد السيف .

استمع معى إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو يسأل فيجيب ببلاغة موجزة وبيان صريح :

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقا تل حمية ويقا تل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » متفق عليه .

• • •

الإخلاص فى الصلاة

وننتقل الآن من دور الإخلاص فى ساحة الجهاد وميادين القتال إلى دوره فى الصلاة وكثرة الخطأ إلى المساجد ، حيث يخبر الصادق

الأمين صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام في مجلسه الذي وصل فيه ، يقولون : اللهم ارحمه ، اللهم أغفر له ، اللهم تب عليه : ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه » متفق عليه .

• • •

تعال يا أخا الإسلام لتنهل من هذا الفيض الرباني ، وترتشف من هذا الرحيق الصافي من الكوثر المعسول والكرم الإلهي . . إليك ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن فضل الله العلي العظيم جل جلاله في الحديث القدسي الجليل حيث يقول : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك : « فمن هم بحسنة فلم يعملها : كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها : كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله سيئة واحدة » .

فبالإخلاص يصح الإيمان ، وبالتوحيد يرتفع البنيان ، وبالإيمان والتوحيد والإخلاص تبنى النفوس . .

فأعظم الإيمان في بناء النفوس ! !

النفاق

النفاق ضد الإخلاص . . فإذا كان الإخلاص هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى ، فإن النفاق على النقيض من ذلك . حيث يكون المقصود بالعمل غير الله ، ومن ثم : لا يكون هناك إخلاص ، وعندها تختل الموازين ، وتنهار القواعد ، ويهتز المجتمع . .
فإذا كان الإخلاص هو حجر الأساس في بناء النفوس : فإن النفاق أكبر معول يحطم النفوس .

والنفاق ضد الإيمان ، والمنافقون في كل زمان ومكان : عالة على المجتمعات في السراء ، وسوس ينخر في عظام الأمة ساعة الضراء ، لا يعدون للجهاد عدة ، ولا يتمنون للمجاهدين عودة : (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم ، ولمحص ما في قلوبكم) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وماقتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يحبي ويميت ، والله بما تعملون بصير) ، (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فاذرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) !

هذه أقوال أصحاب الرياء والنفاق في تثبيط الهمم وتحبيط العزائم ،
(لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً) !!

إن الله جل جلاله يحب المخلصين ، ويبغض أهل الرياء المنافقين . .
لقد حكم بالعذاب في جهنم على نماذج من الناس : أقوالهم معسولة ،
وقلوبهم أمر من الصبر . . يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم أنه
لا يطيق لك فراقاً . . ملاك في مظهره ، شيطان في مخبره . . يلقاك بوجه
أبي ذر ، وقلب أبي جهل . .

يقول جل في علاه : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة
الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) . وإذا تولى سعي
في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد .
وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس
المهاد) !!

أقسام النفاق

والنفاق أقسام ثلاثة : نفاق في العقيدة : يضمّر صاحبه الكفر في
قلبه ، ويظهر الإسلام على لسانه .

ونفاق في العبادة : يدخل فيها على حرف غير متمكن ولا مثبت .

ونفاق في المعاملة : لا يعامل الناس بما يتفق وقواعد الأخلاق
الإسلامية .

وقد أفاض الكتاب العزيز والسنة المطهرة في بيان هذه الأقسام ،
والتحذير منها ، نوضحها فيما يلي :

النفاق في العقيدة

يقول جل جلاله في هؤلاء : (ومن الناس من يقول آمنا بالله
وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ،
وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ثم تبين الآيات الكريمة أن
ما أصاب هؤلاء ليس مرضاً جسمانياً في عضو من أعضائهم ، أو
مرضاً فسيولوجياً في قلوبهم ، إنما هو مرض من أخطر الأمراض . .
إنه مرض النفاق : (في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم
عذاب أليم بما كانوا يكذبون) ، ثم يشرح القرآن أعراض هذا
المرض ، ويحكم على كل عرض منه ، فيقول عن هؤلاء : (وإذا قيل
لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) فيصدر الحكم
الصادق : (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) .

ثم يذكر عرضاً آخر فيقول : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن
الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟) فيصدر الحكم الصادق :
(ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) ، ثم يذكر عرضاً ثالثاً فيقول .
(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا .
إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) فيصدر الحكم الصادق : (الله
يستہزی بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) ثم يحكم على هؤلاء جميعاً

بقوله جل شأنه : (أولئك الذين اشترؤا الضلالة بالهدى ، فأربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) .

تم بصورهم في مثلين عجيبين : أحدهما للمنافقين الخلفاء ، الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، ولا تفتح فيها نافذة تضيء لها طريق المعرفة فيقول تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون) .

والمثل الآخر لقوم مترددين متخيرين لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على مبدأ ، فهم فى غيهم يترددون . . ذلك لأن قلوبهم قد ارتابت وتحيرت ، فيقول : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شئ قدير) .

وتأتى سورة « النساء » لتضيف إلى هذه الأعراض التى ذكرناها أعراضاً أخرى لمرض النفاق . . فى موطن الجهاد والخروج إلى القتال يقول الله فى حق هؤلاء : (وإن منكم لمن ليبطئن : فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً) ويحكم الله على هذا الفريق بقوله :

(بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستزأ بها فلا تفعلوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم : فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟) . إذا : فحياة هؤلاء : استغلال وانتهاز للفرص ، وأنانية ، وحقد ، وحسد !

ثم يذكر القرآن عرضاً آخر لهذا الوباء الخطير والشر المستطير فيقول سبحانه (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً . مذبذبين بين ذلك : لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء) . . ثم يصدر الحكم الصادق على هؤلاء المنحرفين عن طريق الجادة فيقول : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً) .

وبعد أن شخّص الكتاب العزيز هذا الداء الوبيل : وصف الدواء ، مهما كان خطر الداء مستحفظاً ، ومهما سرى سريان النار فى الحلفاء ، والسم الزعاف فى الأحشاء . . إن الدواء الناجح ، والعلاج النافع لهذا المرض يتمثل فى :

التوبة ، الإصلاح ، الاعتصام ، الإخلاص .

توبة نصوح إلى الله ، وإصلاح بين الناس ، واعتصام بحبل الله ، وإخلاص لدين الله . . قال عزمزقائل (إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً) .

نفاق العبادة

وهذا النوع الخبيث من النفاق وصف القرآن الكريم أصحابه بأنهم إذا عبدوا الله لا يعبدونه عبادة الوائق المطمئن ، وإنما يدخلون العبادة على جزء يسير ، وحرف ضعيف ، وطرف غير ثابت : فإن أصابهم خير من مال وولد وصحة وجاه : اطمأنوا لهذا الجزء اليسير من الدين ، وإن أصابهم فتنة ، من مرض أو فقر أو ابتلاء : انقلبوا على وجوههم خاسرين ، لا يعرفون الله حقاً ، ولا لرسوله واجباً .

ولقد صوّرت الآية هؤلاء تصويراً قوياً ، فقال سبحانه : (ومن الناس من يعبد الله على حرف : فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة : انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

هؤلاء فقدوا أهم صفات الإنسانية الصحيحة : ألا وهي صفة الوفاء ، التي إذا فقدها الإنسان أصبح جسداً لا روح فيه .

كلمة عن الوفاء

إذاً : وجب علينا أن نعقب على هذا الجانب بكلمة عن الوفاء ،
لعظيم أثره ، وجليل خطره ، خصوصاً إذا كان مع الله ، فنقول ،
وبالله التوفيق :

إن الله جل جلاله أوصى في كثير من آياته بالوفاء في جميع العهود
وشتى العقود ، فقال سبحانه : (وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان
مستولاً) ، (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) ، وقد أخذ مولانا
تبارك وتعالى عقوداً على عبادته وعهوداً على خلقه ، فأول عقد أبرم :
ذلك الذي شهد العباد فيه لربهم بأنه الرب الواحد الذي لا شريك له ،
وكان ذلك لعموم البشرية بمختلف أشكالها ونماذجها ، قال سبحانه :
(وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم :
ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن
هذا غافلين) .

وأخذ مولانا تبارك وتعالى عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا وينصروا
ذلك الرسول - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - الذي سيختم
به الرسالات . ومعنى نصرته : أن يوصوا أتباعهم إن هم أدركوا
زمانه أن ينصروه ويؤيدوه . قال عز من قائل : (وإذا أخذ الله ميثاق

النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين « فمن تولى بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون) .

وأخذ الله على العلماء عهداً وأبرم معهم عهداً أن يبينوا للناس ما أنزل إليهم من ربهم ولا يكتبوا منه شيئاً ، فقال سبحانه : (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشتررون) .

الوفاء بالعهد

وهناك عقود كثيرة — غير هذه — أوصى الله برعايتها وصيانتها ، فقال سبحانه (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها) ، وقال جل شأنه : (وبعهد الله أوفوا) .

فلذا أبرم المسلم عهداً : وجب احترامه ، وإذا أعطى عهداً : وجب الإلتزام به .

ومن الإيمان : أن يكون المرء عند كلمة قالها ، ينتهى إليها كما ينتهى الماء عند شطآنه ، وأن يكون عند عهد قطعه على نفسه ، فيعرف بين الناس بالوفاء ، وبأن كلمته موثق غليظ ، لا خوف من نقضها ، ولا مطمع في اصطيادها .

ولا بد من الوفاء بالعهد ، كما أنه لا بد من البر باليمين ، ومناط
الوفاء والبر : أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ،
ولا يمين في مأثم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل
الذى هو خير » .

ومن ثم : فلا تعهد إلا بمعروف . فإذا وثق الإنسان عهداً
بمعروف : فليصرف همته في إمضائه ما دامت فيه عين تطرف ،
وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد
والاثناء .

سبحانك ربى : عظمت رأفتك ، وجلت حكمتك ، وبلغت
قدرتك ، ووسعت رحمتك .

ما أجل الوفاء بالعهد ! ومن أعظم وفاء من الله بتنفيذ عقده الذى
عقده مع المؤمنين ؟ ! عقد بيع وشراء : أعطاهم الجنة بعد ما اشترى
منهم الأنفس والأموال ، وهى ملكه ، وهو خالقها ، ثم قال سبحانه :
(وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن) ، ثم قال : (ومن
أوفى بعهده من الله ؟) .

فى مدرسة الوفاء بالعهود تربى خريجو المعاهد الإسلامية التى
اتصفت بحميد السجايا وكريم الشرائع .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر
عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت

المشركين ! ! لئن أشهدنى الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع ! ! فلما كان يوم « أحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعترد إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم . . فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ : الجنة ورب النضر ! إني لأجد ريحها دون أحد ! ! قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم . . قال أنس : فوجدنا به بضعاَ وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته بشامة أو بينانه . .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه : فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا) .

والقرآن العظيم يعقب على هذا الموقف فيقول : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) .

فهؤلاء الذين قدروا الوفاء قدره ، وعرفوا الله حقه : لا يعرف النفاق إلى قلوبهم سبيلا ، لأنهم رجال أبطال ، وقفوا مواقف الشرف في ساعات العسرة وأوقات الشدة .

فعليك يا أخى أن تأخذ عنهم القدوة ، وتجعل منهم الأسوة الحسنة . رضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

نفاق المعاملة

وهذا هو القسم الثالث من أقسام النفاق . . ويتمثل في صور سيئة تتعلق بالمعاملات . .

لقد دلت الأحاديث الصحيحة التي رويت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أن هناك آيات وعلامات وأمارات : من اتصف بها كان منافقاً .

وعندما « نغربل » هذه الصفات ونظر حها على بساط البحث ، نجدها تدور حول خمس صفات :

- ١ - إذا حدث كذب .
- ٢ - إذا وعد أخلف .
- ٣ - إذا أوتمن خان .
- ٤ - إذا عاهد غدر .
- ٥ - إذا خاصم فجر .

ولعلك - أيها القارئ الكريم - تلمح أن هذه الصفات كلها على النقيض من صفات المؤمنين : فالمؤمن إذا حدث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أوتمن أدى ، وإذا عاهد أنجز ، وإذا خاصم لا يجور ولا يفجر .

قل لى بربك : لو وجدت هذه الحصال - خصال المنافقين - فى أمة : هل تقوم لها قائمة ، أو ترتفع لها راية ؟ اسمع معى إلى قول رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يبحث على الصدق ويحذر من الكذب ، فيقول : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » :

وما أروع هذا البيان الموجز الذى وصى به الرسول الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - أحد طالبي الوصية فقال له : « لا تكذب » .

ولعل الوباء الذى استشرى ، والخطر الذى استفحل فى هذه الحياة : إنما يرجع إلى أصل واحد : هو الكذب ، فالكذاب خائن فى وعده ، وفى عهده ، وفى أمانته ، وفى خصومته . لا يقيم للقيم الأخلاقية وزناً ، ولا للمثل العليا قدراً ، لأنه يعيش فى هذه الدنيا عيشة السائمة ، لا تبتغى إلا أن تأكل وتملأ جوفها ، وهى تعلم أن هلاكها فى منمها .

الصدق من صفات الرسل :

ولقد لقب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل رسالته بأنه « الصادق الأمين » . . هكذا شهد له بنو قومه ، حتى إنك ليأخذك العجب ، وتستولى عليك الدهشة عندما تتأمل هذا الموقف الذى وقفه صلى الله عليه وسلم عند الهجرة : فقد خلف على بن أبى طالب وراءه ليؤدى الدائع إلى أهلها . . إذ أن أهل مكة كانوا لا يأمنون أحداً على ودائعهم إلا الصادق الأمين ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد مدح الله إسماعيل عليه السلام بقوله : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً) .

وأمر الله عباده أن يكونوا مع الصادقين ، فقال عز من قائل :
(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) .

وصف الله أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم أهل الصدق ، فقال : (يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) .

إذن : مدار الأمر كله يعود إلى الصدق في القول ، والإخلاص في العمل .

ويوم يتوفر هذا الجانب في نفس المؤمن : فلسوف ينتظم منهجه في الحياة ، ويستقيم خلقه بين الناس . .

فالصدق في الحديث : مطابقة الخبر للواقع ، والصدق في الوعد : الوفاء به ، والصدق في الأمانة : أداؤها ، والصدق في العهد : الحرص على إنجازه ، والصدق في الخصومة : قول الحق ، ولو على نفسك .

وإننا لا ننسى هذا المشهد الرائع ، والموقف الجليل الذي وقفته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءها بعد ما نزل عليه الملك في « غار حراء » يأمره بالقراءة ،

ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم على زوجته الوفية يرجف فؤاده . .
فإذا كان قولها لتزيل عنه ما ألم به ؟

لقد وصفته بكريم الشائل ، وحמיד السجایا ، وقالت له : « والله
لا يخذلك الله أبداً » ودعمت قولها بتلك الحیثیات القویة : « إنك لتصدق
الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري
الضيف ، وتعین على نوائب الحق » . .
صلى عليك الله يا علم الهدى . .

• • •

ما يجب أن يكون عليه المسلم :

أخى المسلم : هذه صفات الرجال الذين يريدون أن يشيدوا صروح
الكرامة فى الحياة ، ويضيئوا شمس الهداية لأقوامهم .

ولكى يكون الإنسان من هؤلاء : لابد أن يكون وفياً بعهدده ،
ولكى يكون كذلك : لابد وأن يلتزم بعنصرين :

العنصر الأول : الذكر . والعنصر الثانى : قوة العزيمة .

ولذلك ختم الله آية الوفاء بالعهد بقوله : (وبعهد الله أوفوا ، ذلكم
وصاكم به لعلكم تذكرون) .

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا عزممت فتوكل على الله » ،
وما أكل آدم من الشجرة إلا عندما نسى العهد ، قال تعالى : (ولقد
عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى) .

ولقد أكد القرآن في آيات كثيرة على لفظ « الذكر » فختمها
قائلا :

(كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) ، (قد فصلنا الآيات لقوم
يذكرون) إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا قوى العزم : قويت الإرادة ، فتجشم الإنسان كل الصعاب في
سبيل الوفاء والأداء . . قال تعالى : (وما يلقاها إلا الذين صبروا
وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

الرياء ، وأثره في النفوس

وإذا كان النفاق ضد الإيمان ، فإن الرياء ضد الإخلاص ، فكما لا يجتمع نفاق وإيمان في قلب واحد ، كذلك لا يجتمع رياء وإخلاص في قلب واحد ، وحيث قد علمنا النفاق وما يدور حوله وما يشتمل عليه من نفاق في العقيدة أو العبادة أو المعاملة ، فقد رأينا أن نذكر كلمة عن الرياء ، وهو أن يقصد العبد بعمله غير وجه الله تعالى . وفي هذا يحذر العلي العظيم هؤلاء المرائين فيقول في الحديث القدسي الجليل : « أنا أغني الشركاء عن الشرك : من عمل عملاً أشرك فيه غيري : تركته وشركه » . وجاء في الحديث أيضاً : « يخرج آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين (١) ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ،

(١) معنى قوله : « يختلون الدنيا بالدين » . أى ينتزعون خيرات الدنيا ويحصدونها باسم الدين ومعنى قوله : « يلبسون للناس جلود الضأن من اللين » : هو كناية عن لينهم للناس ظاهراً ، وإظهار السوء باطناً وخداعاً ، فليس في قلوبهم محبة للعباد ، بل يحبون أنفسهم فقط ، ويخادعون الناس بإظهار حبهم ، قاصدين بذلك أغراضاً دنيوية ، كما يريدون احترام الناس لهم بتحسين ظواهرهم . ومعنى قوله جل جلاله « أبى يغترون ؟ » أى يغترون بحلمى عليهم بتأخير عقوبتهم ؟

ومعنى قوله تعالى : « بى حلفت » أى حلفت بى وحدى لا يستحقها غيرى ، كما لا يجوز لأحد أن يحلف بغير الله تعالى ، وإن كان معظماً عند الناس . . قال صلى الله عليه وسلم : لا تحلفوا أيها الناس بأبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله ، أوليدع »

ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل :
أبى يغفرون ؟ أم على يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع
الحليم منهم حيران .

فكن قوى الثقة بالله ، فلا قلبك يميل إلى رياء أو حب سمعة :

العزة فى طلب الرزق

أخا الإسلام :

لا تخضعن لمخلوق على طمع	فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة	إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به	وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه	فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما	استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

° ° °

لقد كان موقف الإيمان دائماً من أتباعه : يدور حول الثقة فى الله
والاعتزاز بطاعته . فالروح والرزق لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى :
قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى إنه
لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها » .

فيا أخى :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا لكنه : خلق الإنسان من عجل !!

واعلم بأنه لا يمكن أن تحصل على شيء ليس لك ، ولا يمكن أن يضيع منك شيء هو لك ، فلا تنافق على حساب دينك أو كرامتك أو عزة نفسك ، واقصد بعملك وجه خالقك . قال تعالى : (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو) !

الرياء يفسد العمل ويحبطه :

لقد بلغ من موقف الوحي أنه أجاب على سؤال رجل جاء يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له : يا رسول الله إني أصلى طاعة لربي وليراني الناس . وإذا بالأمين جبريل عليه السلام ينزل بهذه الآية الكريمة : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » فالرياء في العبادة خبث لا يليق : كذلك الرياء في معاملة الناس . قال عز من قائل : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يببتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً » .

ولقد أخبر الصادق المعصوم أن من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين : يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه .

ولعلك يا أخي ترتعد منك الفرائض عندما تقرأ هذا الحديث النبوي الشريف الذي أودى الرياء فيه بقوم قدموا أعمالاً ولم يقصدوا بها وجه الله . . أودى بهم إلى النار وعذابها . . قال صلى الله عليه وسلم :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه الله نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ! ! » رواه مسلم .

أرأيت إلى الرياء ، كيف يحبط الأعمال مهما بلغت وجلت وعظمت ؟ أبعد القتال والعلم والإنفاق أعمال تقاس بها ؟ ومع ذلك فإن دخول الرياء فيها هشم أسوارها ، وحطم بنيانها ، وقوض أركانها ، وأزال قوتها ، وضيع ثوابها ! !

نعوذ بالله من الرياء !

لقد صدق الله رب العالمين حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن

بالله واليوم الآخر ، فمثل كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه
صلداً لا يقدر على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين » .

إن النفس تسيل مرارة ، وإن الكبد تظل مقروحة عندما نقرأ هذا
الحديث الشريف وتلك الآية الكريمة . فالمرءون يحاولون أن
يخادعوا - حتى وهم واقفون بين يدي الله - ويحاولون أن يظهروا
أنهم قدموا الأعمال ابتغاء مرضاته ، فيقول لهم الله جل جلاله : كذبتُم !

إن هذه الكلمة لها وقع تكاد الجبال تحر له هدأ ، وما ذاك إلا
لاختلاط الرياء بالأعمال ، فأزال ثوابها كما يزيل المطر الغزير تراباً
على حجر ، فتركه أملس ناعماً لا شيء عليه ! !

تنبيه وتحذير :

واعلم أن المرأى لا يغيب أمره عن الناس ، مهما طال به عهد الرياء ،
بل لابد أن تظهر حقيقته أمام الخلق في يوم ما . قال صلوات الله وسلامه
عليه : « من سمع : سمع الله به ، ومن يرأى : يرأى الله به » (١) .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : « من تزين للناس
بما يعلم الله منه خلاف ذلك : هتك الله ستره وأبدى فعله » !

(١) والمعنى أن (سمع) بتشديد الميم : معنا أظهر عمله للناس رياء ، ومعنى
(سمع) الله به : أى فضحه يوم القيامة ، ومعنى من رأى ، رأى الله به : أى
من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم رأى الله به : أى أظهر سريرته على
رؤوس الخلائق .

وما من شك في أن أخطر الأشياء التي يحبطها الرياء : العلم ،
 إذا كان المقصود به غير الله ، وغير ما عند الله . . قال ﷺ :
 « من تعلم علماً يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به
 عرضاً من الدنيا : لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - يعني ربحها »
 رواه أبو داود .

ونصيحتي :

على كل مسلم مخلص أن يراعى الله في كل فعله . . يقول القرآن
 الكريم مظهراً هذه القضية : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ،
 ومماتي ، لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول
 المسلمين) .

ولقد صدق رسول الله ﷺ عندما جعل دستور الحياة أمام
 الناس هذه الكلمات الفاصلة : « من أرضى الله بإسقاط الناس :
 كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس : وكله الله
 إلى الناس ، ومن أصلح سريرته : أصلح الله علانيته » .

فائدة جلية :

ونختتم هذا الباب بهذه الفائدة الشرعية الجلية :
 هناك من الأمور من يتوهم الإنسان أنه رياء ، وليس برياء ،
 ومثل هذا ما روى عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله

ﷺ : « أرأيت الرجل الذى يعمل من الخير ويحمله الناس عليه ! قال : تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم . ومعنى هذا أن الناس إذا أثنوا بلسان الحق على من يفعل الخير فليس هذا رياء ، إنما هو من باب قول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « عبدى لم تشكرنى إن لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه » .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

الثبات على المبدأ

إذا علمنا أن النفاق والرياء هما من الأمراض الخطيرة التى تهدم الأمم وتقوض المجتمعات ، بل من أشدها خطراً . . فما العلاج ؟ وما السبيل إلى البناء القويم لهذه المجتمعات ؟

لم أجد أنجح ولا أنفع فى بناء المجتمع : أفضل من الثبات على المبدأ ، وأعنى به : مبدأ الحق والشرف والرجولة والاعتزاز بأوامر الله وطاعة رسوله ، ذلك لأن النفس لا تنحدر إلى الهاوية إلا إذا نسيت مبدأها وخانت عهودها . . عندئذ تنمرغ فى ماديات مظلمة تنيه فى بيداء هذه الحياة .

ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك : قصة ثعلبة بن حاطب : الرجل الذى نسى مبدأه وخان عهده ، كان يلقب بـ « حمامة المسجد » ، وكفى بهذا اللقب شهادة له بحسن المواظبة وأداء الصلوات فى أوقاتها . .

ماذا حدث لتلك « الحمامة » ، وماذا جرى لشعلبة ؟

رووا أنه أتى مجلساً من مجالس الأنصار ، فأشهدهم : لئن آتاني الله من فضله : آتيت منه كل ذى حق حقه ، وتصدقت منه ، ووصلت القرابة . . فمات ابن عم له ، فورث منه مالا ، فلم يف بشيء مما عاهد الله عليه ، فنزل قول الله تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب) ؟ ! !

أرأيت إلى هذه العاقبة الوخيمة التى منى بها ذلك الذى نسى أصله ، وخان عهد الله ؟ ! كان كل مطلبه الدنيا وما فيها من زخارف خداعة ، وبوارق لامعة ؟ . . أقبلت عليه ففسى ربه ! وبعد أن كان « حمامة » تأوى إلى بيت الله فتأنس بذكره : قصت أجنحتها ، فتمرغت فى أحوال الدنيا . . وهكذا الدنيا : إذا حلت : أوجلت ، وإذا كست : أوكست ، وإذا جلت : أوجلت ، وكمن ملك رفعت له علامات ، فلما علا : مات ! !

عظة وعبرة :

كذلك من الدروس التى يجب أن يعيها المجتمع فى الثبات على المبدأ : ألا يتنكر الإنسان لفضل الله عليه ، فيمنع النعمة أصحابها ، ويصير بذلك كنوداً آثماً

لقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، قال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذى قدرني الناس ، فسحبه ، فذهب عنه قدره ، وأعطى لوناً حسناً ، وجلداً حسناً ! فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ! فأعطاه عشرةا ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذى قدرني الناس ! فسحبه ، فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأى المال أحب ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله على بصرى ، فسحبه ، فرد الله عليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والدأ . فأنج هذان ، وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه - أى الملك - أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفرى . فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بغيراً أتبلغ به في سفرى . فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأتى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابرأ عن كابر ، قال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى « الأقرع » في صورته فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل ما رد الأول ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

ثم أتى « الأعمى » في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال ، فقال :
قد كنت أعمى فرد الله على بصرى فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ،
فو الله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته الله ! فقال : أمسك مالك ، فإنما
ابتليت ، فقد رضى عنك وخط على صاحبك ! » .

إن هذه تذكرة

إن من أعظم الوصايا الغالية التي وصى بها رسول الله صلى الله عليه
وسلم قوله : « احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . تعرف
إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت
فاستعن بالله » .

أجل يا سيدى يا رسول الله ! يا صاحب الثبات على مبدأ الحق !
يا من وصفت المؤمن الصحيح فقلت : « عجباً لأمر المؤمن : إن أمره
كله هو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر :
فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر : فكان خيراً له » .

ولانى إذ أبرهن على هذه المبادئ الحقيقية : أسوق هذه الدروس
أمام المسلمين ليجدوا فيها العظة . إنها دروس على ثلاثة نفر وقعوا في شدة
فنجاهم بالإخلاص . لقد ثبتوا مع الله في طاعته ساعة الرخاء . فتعرف
الله عليهم ساعة الشدة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان
قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من

الجبيل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوماً ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً ، لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس لى - وفى رواية كنت أحبها - كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت منى حتى أملت بها سنة من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها - وفى رواية ، فلما قعدت بين رجلها - قالت : إئتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس لى وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج عنها .

وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذى له ، وذهب ، فثرت أجره حتى كثرت منه

الأموال ، فجاءني بعد حين ، فقال : يا عبد الله : أد إلى أجرى ،
 فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال
 يا عبد الله : لا تهزأ بي ، فقلت : لا أهزأ بك ، فأخذه كله ، فاستاقه ،
 فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا
 ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون . (متفق عليه) .

. . .

هل تأملت أيها القارئ الكريم هذا الهدى النبوي . والإرشاد
 المحمدي في هذه الصورة البيانية الرائعة ؟ !

الإيمان وبناء النفوس

إذا كان الإيمان هو التصديق القلبي ، فلنعلم أن القلب هو محله .
 بهذا نطق الكتاب الكريم ، قال تعالى : (أولئك كتب في قلوبهم
 الإيمان) ، وقال جل شأنه : (وقلبه مطمئن بالإيمان) ، وقال سبحانه :
 (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) .

هل وقفت على الدور العظيم الذي قام به الإيمان في بناء النفوس
 الإيمان ما رأيت الرجل الأول من هؤلاء النفر الثلاثة ينتظر والد
 النائم حتى يقوم فيشربا نصيبهما من اللبن ، ويؤثرهما على أولاده
 ولولا الإيمان ما قالت تلك الفتاة لابن عمها : اتق الله ولا تفض الخا

إلا بحقه . . هل كان هناك أحد يراها إلا الله ؟ ولولا الإيمان ما استجاب ابن عمها لندائها وخشى الله !

(إن الذين اتقوا إذ مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون) . . ولولا الإيمان مارد ذلك المالك أجر هذا الأجير بعد ما زاد ونما واستثمر .

لا عجب ! فإن الإيمان هو صانع المعجزات ، وبأنى النفوس . فلولاً الإيمان ما كانت الأمانة ، وما كانت خشية الله ، وما كان البر في جميع صوره ، ولكنه سر من أسرار الله جلّت قدرته ، يعمر به النفوس ، فتضيء وتشرق وتتألق وتتألق ، حتى تصبح كالشمس في ضحاها ، والقمر إذ تلبّاه ، والنهار إذا جلاها .

فاللهم أعط نفوسنا تقواها ، وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

من هذا كله نعلم أن القلوب هي المركز الأول الذي ينبى عليه صلاح الفرد ، وينبى على صلاح الفرد صلاح المجتمع ، وإنما يؤدى الإيمان ثمرته المرجوة ويؤتى أكله إذا كان مستشعراً عظمة الله وهيمته سلطانه .

نعم : مستشعراً ذلك في سره وعلايته ، حيث ينطق الحديث الشريف بهذه الحكمة النبوية : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » والإيمان إذا حل قلباً

ملاؤه خشية ومعرفة ، قال سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون) . . نعم : لا يتوكلون على غيره ، لأنه وليهم : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) .

والمؤمنون الصادقون إنما هم أعلام شاححة الرؤوس ، مشرقة الأعناق ، لأنهم معززون بالله : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) ، كذلك يجعلون وجههم إليه سبحانه ، يعلمون أنه جل جلاله هو المتولى شئونهم : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) ، والمؤمنون الصادقون إذا سألوا أو استعانوا : سألوا الله ، وطلبوا العون منه ، لأنهم يعلمون أنه تعالى أقرب إلى العبد من حبل الوريد .

لذلك نلمح هذه الإشراقة المضيئة في القرآن الكريم عندما يعرض للمسائل التي كانت توجه إلى رسول الله ﷺ طلباً للبيان والمعرفة . . فن ذلك قول الله تعالى : (يسألونك عن الأهلة : قل هي مواقيت للناس والحج) ، (يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) ، (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله) ، (يسألونك عن الخمر والميسر ؟ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس)

وإثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك : ماذا ينفقون ؟ قل العفو) ،
(يسألونك عن اليتامى ؟ قل إصلاح لهم خير) ، (ويسألونك عن
المحيض ؟ قل هو أذى) ، (يسألونك عن الجبال ؟ فقل ينسفها ربي
نسفاً) .

فأنت ترى في الإجابة عن هذه الأسئلة تصديراً بكلمة « قل » ،
إلا في قوله تعالى : (وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريب) فإنها قد
خلت من كلمة « قل » ، فلم تقل « فقل إني قريب » وإنما قالت
« فإني قريب » . . وفي ذلك من قوة القرب إلى الله ، وشدة علمه
وإحاطته : ما يجعلنا نتوجه إليه دائماً في السراء والضراء وحين البأس .

يارب : أنت الذي تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر
الزلات ، وتقول « هل من تائب مستغفر ؟ أو سائل أقضى له
الحاجات » !

• • •

بهذا الإيمان : تبني النفوس على الكرامة والعزة ، وتشيد صروحها
على المعرفة والأمانة ، لأنها دائماً في حال مراقبة أو مشاهدة : « اعبد الله
كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وليس ثمة أدنى شك
أن القلوب المؤمنة في حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة . . أسمعت
إلى نوح عليه السلام عندما اشتد به الكرب ، وزاد عليه عناد قومه ،
واتهم بأنه مجنون ، وازدجر ، ماذا قال ؟ (فدعا ربه أني مغلوب ،

فانتصر . ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً
فالتقى الماء على أمر قد قدر) .

ثم أرأيت إلى أيوب عليه السلام في مرضه وشدته وكربه ومحتته
يتوجه إلى خالقه فيقول : (مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ،
فيكون الجواب : (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله
ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) ؟

ثم استمع إلى صاحب الحوت : يونس عليه السلام ، وهو في بطن
الحوت وفي ظلمة البحر وأعماقه ينادى ويهتف : (لا إله إلا أنت
سبحانك إني كنت من الظالمين) فتأتى الإجابة أسرع من البرق :
(فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين) .

وها هو ذا زكريا عليه السلام يريد ولداً صالحاً وغلاماً رضيعاً ،
فيتوجه إلى الله : (رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين) فتأتى
الإجابة : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) .

ثم اسمع إلى مؤمن آل فرعون — بعد ما بذل النصيح والتوجيه ،
وبين الطريق السوى — يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين
المخلصين فيقول لهم : (فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري
إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) فتأتى الإجابة والنجدة من رب العزة
الذى يغيث الملهوفين : (فوقاه الله سينات ما مكروا ، وحق بال
فرعون سوء العذاب) .

سورة النحل

ووحداية الله تعالى

أيها القارى الكريم : إذا أيقن العبد بربه ، وعرف حقه من الوحداية الخالصة : استقرت نفسه ، وثبتت تجاه تيارات الحياة وعواصفها بكل بروقها ، ورعودها ، ورياحها ، ورماها . . . ومن ثم ، فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوحداية ، ودلائل القدرة ، حتى يبني النفوس بناء سليما ، ويشيدها على تقوى من الله ورضوان .

ولسوف نعرض الآن لبعض هذه المدارس فى سورة « النحل » ، لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحداية الله تعالى وعظيم قدرته . .

ففى سورة « النحل » نطق الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونية والآفاقية والأنفسية شوامخ راسيات ، ورواسى ثابتات ، لا تحركها العواصف ، ولا تؤثر فيها الرياح العواصف :

استمع إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله . . فلقاء الله حق واقع . . ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى ، كأنه قد وقع ، لأن الله لا يخلف .

وعده : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ،
ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحي الذى تنزل به الملائكة ، وأنه
كالروح ، يحيى الموات ، وينزل غصاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة ،
ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله ، فيقول سبحانه :
(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه
لا إله إلا أنا ، فاتقون) . ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله حين
أعلنت قولك : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » :

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة
المتنوعة والناطقة بالوحدانية والقدرة ، فيقول سبحانه : (خلق السماوات
والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون) ، ففى هذه الآية المباركة يذكر
أن العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ،
لا لهواً ، ولا باطلاً ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، وإنما بالحق قامت السماوات
والأرض : (وما كنا عن الخلق غافلين) ، وتعالى الله وجل جناب
الحق أن يكون له شريك يناقشة الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم
المريد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الإنسان
فيقول سبحانه : (خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين) .

فإنسان سر الله فى أرضه ، ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ،
ولذا يقول أحد الحكماء عن الإنسان :

وداؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمّر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر !

(فليُنظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق !) . فماذا كان من الإنسان بعد ذلك ؟ قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : (فإذا هو خصيم مبين) : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة ، فهو بذلك يدل على أن خروج الإنسان من أصله اللائق به نحو الله : يعتبر أمراً غير مألوف ، فما كان ينبغى من الذى خلق من نطفة مهينة أن يفاجئ بالخصومة المبينة . . والخصومة لمن ؟ ! لخالقه ورازقه ومنشئه :

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته انظر خلالك ، فإن الثن ثريب
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

يقول تقي الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم : يتكبر على الأرض ، وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم : لا تتكبر على ظهري ، لأننى غداً سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو ما بين هذا وذاك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقه ، وتنتنه عرقه ، وتميته شرقة ؟ .

كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أهلك ، وأخرى وأنت طفل

من رحم أمك ؟ عليك أن تذكر هذا ، ولا تنسين أنك حفنة من
التراب في البداية والنهاية . . (منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها
نخرجكم تارة أخرى) .

ولقد قلت لنفسى ، وأنا بين المقابر . .

هل رأيت الأمن والراحة إلا في الحفائر ؟

فأشارت . . فإذا للودود عبث في المحاجر

ثم قالت : أيها السائل . . إني لست أدري !

أنظري : كيف تساوى الكل في هذا المكان

وتلاشى في بقايا العبد رب الصولجان

والتقى العاشق والقالى . . فما يفرقان

أبهذا ينتهى الأمر . . ؟ فقالت : لست أدري !

أيها القبر : تكلم ، واخبرني يا رمام

هل طوى أحلامك الموت ، وهل مات الغرام

من هو الميت : من عام ، ومن مليون عام ؟

أتمنى أننى أدري . . ولكن لست أدري !

عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه : (والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون)

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر في حياة الإنسان ، حتى أن القرآن الكريم - لكثرة ما فيها من فوائد أشار إلى بعضها : ففيها دفاء في أصوافها وأوبارها وأشعارها ، وفيها اللحوم التي تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها ، وحمل الأثقال التي لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية ، وهو ذلك الجمال في رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على روثيتها ، واستمعت الأذن إلى أصواتها من رعاء وثغاء . . وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا نحصى ولا تستقصى ، فقد أجملها القرآن في قوله : (ومنافع) ، ولك بعد ذلك أن تقول في هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ، ويكثر ذكره . . سبحانهك ربى :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذى بهر العقول ، فحسبه وكفاه

عالم الفلك

وينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم الفلك ، فيقول جل شأنه : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . وفى لفظ « التسخير » ما يدل على منتهى التدليل والتطويع ، دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله . . وفى قوله تعالى : (والنجوم مسخرات بأمره) إشارة عجيبة ، فإنها جملة إسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وأن مجيئها بهذه الصيغة للدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع . .

فإذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته ، وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ، ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف ، فإن العلم لم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك ، وأكثر مما يتخيله العقل .

فى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكر دقة وأشد حساسية وأبعد رصدأ ، إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . وما زال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد .

ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير « جمس جينز » فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطئ البحار فى العالم كله » .

ويقول كذلك فى كتابه : « النجوم ومسالكها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » . .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع فى هذه الكتب عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم ، فلا بد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها

بهاءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم — وهى شمس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته — فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ و : كم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟ .

• • •

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية — التى تتكون من ٣٦٥ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية — لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السدم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة : هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السدم : وجد

أنه يبتعد على الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل في الثانية ، فتي
بدأ في حركته ؟ ومتى يقف ؟ وإلى أين ينتهى ؟ ! !

وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوءه بعد ٨٥ ألف سنة
ضوئية ، فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟ وتعتبر هذه الأرقام :
الوحدات في بداية الكون . . فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من
السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تبين إشعاعها ، وأمر
هذا الوجود ليس عجباً في عدد النجوم والكواكب والمسافات التي
تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذي ظل العلماء في عجب
وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم . . إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم
ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة
الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتي يرجح العلماء أنها تصل إلى
عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التي نعرفها ؟ . ولكن كيف
لا نتخمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ،
بل كل شهر ، حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان
يكفى ملايين السنين - التي مرت منذ القدم - أن تصبح النجوم باردة ،
ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذي بسببه
حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقليل إن السبب هو وجود
عناصر مشعة في النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأي كثيراً ، ثم استبدلت
هذه النظرية بالانفجار الذري ، ثم بالانفجار الأيوني في تبرير

حرارة الشمس وعدم تغيرها : وما زال العلماء في أبحاثهم بسبيل
إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

• • •

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو : كيف لا تفنى
كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب
الحرارة . .

سبحانك ربى ! يا من قلت : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) .

يا من يحار الفهم فى قدرتك ، وتطلب النفس حمى طاعتك .
تخفى عن الناس سنا طلعتك ، وكل ما فى الكون من صنعتك ! .

يا مبدع الكائنات ! يا من كل فعلك حكمة بالغة ! يا من قلت ،
وقولك الحق : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون) .
والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه
منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ، ويا من
قلت : (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز
العليم) .

عالم النبات

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الأرض وما بها من نبات وزروع ، وما احتوته في بطنها من معادن مختلفات ، فيقول سبحانه : (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) ولقد جاء الأسلوب في هذه الآية الكريمة بلفظ « ما » . الذي يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما في الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل . . وكل أولئك ملك لله تبارك وتعالى : (له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) .

سبحانك ربى :

يا من تفرد بالبناء وبالسنا فى عزه ، وله البقاء السرمد
يا من له وجب الكمال لذاته فلذاك ترفع من تشاء وتسعد
(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه
تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن
كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

ما فى الوجود سواك رب يعبد كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الفرد الذى كل القلوب له تقر وتشهد

سبحانك يا من قلت : (الذى جعل لكم الأرض مهجداً ،
وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من
نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

ويا من قلت : (فلينظر الإنسان إلى طعامه - أنا صبينا الماء صباً .
ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبثنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً .
وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم) .

الحث على العمل وزيادة الإنتاج :

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما
تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق ، فقلت :
« التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » ، ولئن كان علماء الاقتصاد قد
أفاضوا فى الكلام عن الإنتاج والاستهلاك : فإن القرآن العظيم أشار
إليهما فى آية كريمة حيث قال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا
منها حباً ففنه يأكلون) فصدر الإنتاج قوله جل شأنه : (الأرض الميتة
أحييناها وأخرجنا منها حباً) ، ومبدأ « الاستهلاك » تشير إليه الآية فى
هذه العبارة : (ففنه يأكلون) .

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من بلجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهداث	بأن الله ليس له شريك

وفي عالم النبات أسرار عجيبة ، وحقائق علمية ، تجعل المتعمق فيها
يخبر الله ساجداً .

. . .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار . . ذلك الخلق
العظيم الذي جاء في وصفه قول القائل : « هو خلق عظيم : الداخر فيه
مفقود ، والظاهر منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز
القلوب وأفزع النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس في البحر فيقول سبحانه : (حتى إذا
كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف
وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين
له الدين : لئن أنجينا من هذه لنكونن من الشاكرين) هذا الخلق العظيم
مسخر ومذل ومنقاد ومذعن لخالقه الذي سخره . . يقول جل شأنه :
(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه
حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم
تشكرون) .

سبحانك ربى :

لما علمت بأن قلبي فارغ من سواك ، ملأته بهداك
وملأت كل منك حتى لم أَدع منى مكاناً خالياً لسواك ! !

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان ، أن يعيش فى الماء وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحها التجارب العلمية : أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء ، فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عند التجميد . . . لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان - لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى - كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف لإقيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها :

أليس فى ذلك الرد - أبلغ الرد - على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فواعجباً : كيف يعصى الإله بل كيف يحجده الجاحد ؟
وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ؟ !

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ إنه الله القائل : (وخلق كل شىء فقدره تقديرأ) ، والقائل : (وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة ، الكبير المتعال) ، والقائل : (إنا كل شىء خلقناه بقدر) .

هل تستطيع الطبيعة السماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر ، وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ . (سبحانك ! هذا بهتان عظيم) .
يا من قلت وقولك الحق : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً »
الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً » :

ويا من قلت : (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . ويا من قلت : (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقر وتشهد بالحق أن لها خالقاً مبدعاً ، حكماً مريداً : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . قد جاء كم بصائر من ربكم : فن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

• • •

وبعد أن أخبر القرآن الحكيم عن عالم البحار : انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما فى الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتمام فى

سناهاث الرحاب الواسعة ، قال جل جلاله : « وألقى فى الأرض
رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات ،
وبالنجم هم يهتدون » .

إنها عمارة الكون . . تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد :
سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداة
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه
من الذى أودع هذه العلامات للارشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد
المترامية ؟ إنه الله ، جل فى علاه !

° ° °

وبعد سوق هذه الأدلة ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع
والإتقان البديع ، يسوق القرآن هذا السؤال لكل عامل بصير ، وليس
المقصود بالسؤال استفهاماً . . فإن الاستفهام محال فى حق الله ، إذ هو
طلب الفهم ، وهو يفيد الجهل بالشىء المستفهم عنه ، وجل جناب
الحق أن يعزب عنه شىء فى الوجود كله ، إنما المقصود بالاستفهام
هنا فى قوله تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون) : هو
الإنكار الذى يفيد النى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق ، فهذا مجرد
التذكرة ، وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره ، فإن ذلك من
الأمور البديهية ، ومن الشئون الواضحة الجليلة ، كالشمس فى ضحاها
وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم ، أنت الخالق المبدع المصور ، لا شريك لك
في ملكك :

يا حبيب القلوب : هب لي رضاك وارحم اليوم مذنباً قد أتاك
ويا إلهي وخسالي ومرادى قد أبى القلب أن يحب سواك

• • •

أخي القارئ الكريم :

وهكذا طفت بعقلك وفكرك ووجدانك وقلبك في هذه الرياض
الباسمة : رياض الكتاب العزيز . .

انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان ، ومن عالم
الإنسان إلى عالم الحيوان ، ثم إلى عالم النبات ، ثم إلى عالم الفلك ، ومنه
إلى ما في الأرض من مكنون الخزائن ، ثم إلى عالم البحار ، ومنها إلى
عالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد في المتاهات . .

نعم الله على خلقه !!

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات . . قال القرآن الكريم بعد ذلك : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله غفور رحيم » .

إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى ، لا بد أن يكون متصفاً بالعلم الشامل الكامل ، ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه :

« والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » .

ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض : من أراد أن يتكلم فى شأن محمد (صلى الله عليه وسلم) فليكن ذلك سرّاً حتى لا يسمع إله محمد ما نقول فيخبره به !! . فإذا كان الموقف ؟ .

لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور » ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير « ؟ !

أخا الإسلام :

الله يرى كل ما تضرع ويعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده ، العالم بكل شيء ، فإن غير الله لا يخلق . لأنه لا يملك الإيجاد من العدم . . ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً ، وهم يخلقون ه أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون ه) . .

الكون ، وقدرة الله

الكون قسمان :

كون زمانى .

وكون مكانى :

فالكون الزمانى :

هو الدنيا والآخرة

والكون المكانى :

هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتى بسورة من مثل القرآن الكريم ، فقد تحداهم بالكون المكانى أن يخلقوا ذبابة ، حيث يقول سبحانه : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) .

العلم الحديث

ووحداية الله تعالى

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها في قاع بحر زاهر متجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الآيات للإمام الزمخشري وهو
يناجي ربه فأقول : سبحان الله ! ما هي تلك البعوضة التي لها عروق ،
ونحر ، ومخ ، وعظام ! إلى أن قرأت هذا البحث العلمي الذي يقوم
به البروفيسور « أردين ليا » الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية . فاسمع
إليه ، يقول الخبر بالحرف الواحد :

« يقوم الدكتور « أردين ليا » من جامعة جورجيا بتجارب جراحية
على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب ، مستخدماً أدوات جراحية
دقيقة ، مثل التي يستعملها صانعو المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء
في السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التي
يقوم بها الدكتور « ليا » أكثر من ٥ دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج
يستطيع « المرضى » من البعوض : الطيران .

ويقوم الدكتور « ليا » — أستاذ علم الحشرات وطبائها — بدراسة نظام الهرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات . وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملاً هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور « ليا » بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا « إفرازات الأعصاب » من مخ البعوضة ، وكذلك بعض الغدد من الرقبة ، وقد وجد الدكتور « ليا » أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة .

فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلاً فقال : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها) ، فما بالك بهذه الخليقة وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ، ووقفت حيالها — واجمة — عبقریات العباقرة والمفكرين ؟ !

. . .

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى توفدة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشاخحات ، إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار . ألا وهى قضية التوحيد ، فقال سبحانه بعد ذلك : (إلهكم إله واحد) ، فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة ، الباهرة والبراهين الباصرة . . إنها قضية لا إله إلا الله . . فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدي ، لا إله إلا الله أفنى بها عمري . لا إله إلا الله يغفر بها ذنبي ، لا إله إلا الله أدخل بها قبري ، لا إله إلا الله ألقى بها ربي .

خطرات في الحب الإلهي

الكل في بحر حبه تاهوا	وقد تفتانوا في سر معناه
وصححوا العقد مخلصين له	بقولهم : لا إله إلا هو
يا معشر الذاكرين كلكم	قولوا معي : لا إله إلا هو
وراقبوا من يعصمكم كرماء	بفضله : لا إله إلا هو
فالكون قد فراح بشره عبثاً	بذكره : لا إله إلا هو
والعرش تسبيحه له أبداً	سبحان من لا إله إلا هو
وكل ما في السماء من فلك	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما في الجبال من عظم	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما في الرياض من شجر	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما في البحار من خلق	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما في الوجود من بشر	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما في الزمان من عجب	أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شيء تراه من حسن	أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شيء يلوح من صور	فزينته : لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا	بأنه : لا إله إلا هو

وكل أهل العقول قد فهموا
 والإنس والجن كلهم شهدوا
 والرعد والبرق إذ يسبحه
 وكل من ضل عن طريق هدى
 وكل من يشتكى أذى سقم
 ومن أتاه بالذل مفتقراً
 ومن أتى بئساً ومفكراً
 يا غارقاً في بحار غفلته :
 يا قوم لا تغفلوا عن ذكره
 كيف تنام العيون عن ملك
 هو الإله العظيم قدرته
 يا فوز من مات وهو معتقد
 سبحانه ما أعم رحمة
 بأنه : لا إله إلا هو
 بأنه : لا إله إلا هو
 بقوله : لا إله إلا هو
 دليله : لا إله إلا هو
 شفاؤه : لا إله إلا هو
 غناؤه : لا إله إلا هو
 فجبره : لا إله إلا هو
 أنهض ، وقل لا إله إلا هو
 بلا إله إلا هو
 سبحانه : لا إله إلا هو
 سبحانه : لا إله إلا هو
 يشهد أن لا إله إلا هو
 بمذنب تاب من خطاياہ !

وقفة تأمل

اقرأ يا أخى هذه القضية مرة ومرة : (إلهكم إله واحد) ، ثم اقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه : (فالذين لا يؤمنون بالآخرة : قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين) .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك : (أجعل الآلهة لها واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب) وقال تعالى : (وإذا ذكر الله وحده : اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه : إذا هم يستبشرون) ، وقوله : (وهم مستكبرون) : أى عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده ، كما قال : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ، ولهذا قال ههنا : (لا جرم) . أى حقاً : (أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) . أى وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء : (إنه لا يحب المستكبرين) اهـ .

• • •

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها ، جليلة لا غبار عليها ، وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو

التشكك : إنما ذلك راجع لمرض في قلوبهم ، فقلوبهم منكورة جاحدة ، مظلمة عابسة :

ماضر شمس الضحى في الأفق ساطعة ألا يرى نورها من ليس ذا بصر ؟
وقد قيل :

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها
وقيل أيضاً :

ما يضر البحر أمسى زاحراً أن رمى فيه غلام بحجر ؟
فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة ، وبصرها بأمر دينها ودنياها .

• • •

وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة : أنها تجحد حقائق الأشياء ، دون أن تبحث وتفكر ، وتمحص وتتدبر ، قال سبحانه : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين » . . بكل هذه السهولة ، وبمنتهى التبجح : تنكر الحقائق .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
حقاً . .

ومن يك ذا فم مريض يجد مرأ به الماء الزلالا

ولا يظلم ربك أحداً

ما عاقبة هؤلاء في الدنيا والآخرة ؟ أما في الآخرة : فكما قال مولانا :
« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم
بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » !

وأما عاقبتهم في الدنيا ، فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير
وخسف ، قال سبحانه : « قدمكر الذين من قبلهم ، فأق الله بنيانهم من
القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون) .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة ، والكفر والجحود : « وضرب الله
مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ،
فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا
يصنعون » . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم
ظالمون . فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واشكروا نعمة الله إن
كنتم إياه تعبدون » .

وموقف هؤلاء المنكرين في الآخرة أيضاً : خزي وتأنيب . قال جل
شأنه : (ثم يوم القيامة نخزيهم ويقول أين شركائ الذين كنتم تشاقون
فيهم) ؟ عندئذ لا يستطيعون جواباً ولا تفسيراً

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة؟ إنهم أهل العلم ، قال جل شأنه :
(قال الذين أتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين • الذين
تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم : ما كنا نعمل من سوء ،
بلى ، إن الله عليم بما كنتم تعملون) .

وبعد كل هذا : فإلى أين ينهى المطاف ، وأين المستقر؟ قال سبحانه :
(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين) .

• • •

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع :
قارن بين أصحاب القلوب المنكرة ، وبين أهل التقوى .

فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم؟ قالوا :
أساطير الأولين ، وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك ،
قال تبارك اسمه وتعالى جده : (وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم؟
قالوا : خيراً) . !

شتان ثم شتان ، وهيهات ثم هيهات بين القولين : بين « أساطير
الأولين » وبين كلمة « خيراً » ، كما أنه شتان بين العاقبتين : فعاقبة
المتكبرين : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها » . هذا فى الآخرة ،
وفى الدنيا : (فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من
فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) .

وأما عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى :

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار
المتقين . جنات عدن يدخلونها ، تجري من تحتها الأنهار ، لهم فيها
ما يشاءون ، كذلك يجزي الله المتقين) .

• • •

فضل الله على عباده

ومن المواقف الطيبة التي يقف عندها العقل عاجباً في هذه السورة
(سورة النحل) إن الله سبحانه شاء - بمنه وفضله - أن يعطي الجزاء
للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذلك في هذه السورة في أربعة مواضع
هذا الموضع السابق أولها ، والموضع الثاني : قوله جل شأنه : (والذين
هاجروا في الله من بعد ما ظلموا : لنبؤثهم في الدنيا حسنة ، ولأجر
الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون) ، والموضع الثالث : قوله جل
جلاله : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة
طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) : والموضع
الرابع : قوله تعالى في حق الخليل إبراهيم : (وآتيناه في الدنيا حسنة ،
ولأنه في الآخرة لمن الصالحين) .

سبحانك اللهم ! أنت ولي المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التي يصفها الكتاب العزيز :
فيقول في حق المنكرين : (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ،
فألقوا السلم ، ما كنا نعمل من سوء) . ويقول في حق المتقين :

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) .

نظرات . . وغير

وبعد هذه المقارنات بين المنكرين والمتقين ، نواصل هذه النظرات في « سورة النحل » ، لتسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى موقفين من أعظم المواقف الشاهدة على الوحدانية والقدرة . . يقول سبحانه :
(وإن لكم في الأنعام لعبرة : نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) .

والمراد بالأنعام هنا : الإبل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : « من بين فرث ودم لبناً خالصاً » . أى يتخلص اللبن : بياضه ، وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم يجرى في العروق ، ولبن يجرى في الضروع ، وبول في المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا في لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه .

فن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والزوث ، وجعل لكل منها مسلكاً خاصاً : أمى الطبيعة الصماء ،

أم الصدقة العمياء ؟ ؟ كلا ! ! إنها مصانع الألبان ، من طراز « كن فيكون » : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) .

وقوله : (لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) : أى لا يغص به أحد ، مع اشتماله على عناصر غذائية ، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاماً يدعو فيقول : « اللهم بارك فيما رزقنا ، وزدنا خيراً منه » ، أما إذا شرب اللبن فكان يقول : « اللهم بارك لنا فيما رزقنا ، وزدنا منه » . من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن ، وبعد ما شربه قال له الأمين عليه السلام : لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

• • •

وينتقل بنا النظم الكريم من « مصانع الألبان » إلى « مصانع العسل » الذى يخرج من بطون النحل ، قال سبحانه وتعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) ونحن هنا نجمل القول فى هاتين الآيتين الكريمتين فى أربعة مباحث :

المبحث الأول :

كلام المفسرين عنهما .

المبحث الثانى :

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته .

المبحث الثالث :

تقرير الطب الحديث فى الشفاء الذى أودعه الله فى شراب النحل .

المبحث الرابع :

الرد على أعداء الإسلام الذين وقفوا من آية الشفاء موقف المعاند المكابر . فنقول ، وبالله التوفيق .

المبحث الأول

كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاماً له وزنه وقيمته العلمية ، قالوا : المراد بالوحى هنا : الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذلة لها ، أى مسهلة عليها ، حيث شاءت ، من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه بمئة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنتها ، وتخرج

العسل من بطونها ، وتببض الفراخ من أدبارها ، ثم تصبغ إلى مراعيها !!
وقوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الخمسة ، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها . وقوله : (فيه شفاء للناس) أى فى العسل شفاء للناس : أى من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ، ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، لأنه حار ، والشئ يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلاً » ، فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً !! » فذهب فسقاه عسلاً ، فبرىء .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقاً على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلاً - وهو حار - تحللت ، فأمرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعراي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه ، فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك

بطنه ، و صلح مزاجه ، و اندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته
صلى الله عليه وسلم

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يعجبه الحلواء والعسل ، وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة
الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام ابن
ماجه فى سننه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « عليكم
بالشفاءين : العسل والقرآن » .

وآية الشفاء فى العسل : قوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب
مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) .

وآيات الشفاء بالقرآن . قوله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم
موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) ، وقوله تعالى : (ونزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله جل شأنه : (قل هو للذين
آمنوا هدى وشفاء) .

وروى ابن ماجه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من لعق
العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء » .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية : (إن فى ذلك لآية لقوم
يتفكرون) أى أن إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الحلقة ، إلى السلوك
فى هذه الشواهد من الجبال ، والباثقات من الأشجار : والاجتناء
من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل — وهو من أطيب الأشياء —

لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ،
فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

• • •

المبحث الثاني

ذكر الحقائق العلمية في كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الإنفاق . . ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل - التي تعتبر أحسن مثل
لهندسة المباني وتعاون أفراد النحل . . فيقول عز من قائل في سورة
« النحل » :

(وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ،
ومما يعرشون) . وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته في الجبال أولاً ،
ثم في الأشجار ثانياً ، ثم في الأعراش والحلايا بعد ذلك .

ويقول العالم « موريس مترلنك » في كتابه « حياة النحلة » : إنه
سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال في مكان جديد ،
فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه - وهو متلاحق متماسك - متاراً
مثلاً كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مدة من الزمن تراوح
بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة
تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الأرض
ولإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق . . . وفجأة

نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها ، وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة في البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية في مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً من الشمع ، ومنى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلاً وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهي لا تنتج شمعاً ، فتأخذ في الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد في ذلك مواقع الغرف التي يقوم ببنائها العمال .

وينشئ النحل أربعة أنواع من الغرف : هي الغرف الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التي هي مهد للعمال والمخازن العادية - وهي تشغل أربعة أخماس الخلية - وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسددة الأضلاع على قاعدة هرمية .

ويقول الدكتور « ريد » إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكلة ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لا فائدة منها ، وهذه الأشكال هي : المثلث المتساوي الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل .

وقد عين « مارك لورين » الزاوية التي تلتقي عندها السطوح للحصول

على أعظم اقتصاد ، فوجد أنها نفس الزاوية التي يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » : ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نطل على ذكر آية من آياتها ، هي الحجرة المسدسة ، التي تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقریات البشر مجتمعة أية تحسينات : « ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة ، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع » ! ! .

• • •

خبرني بربك في أى الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفي أى أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين في النحل ؟ وعلى أى الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذى ألهم إلهام الغريزة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ ! !

والله ما هذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون) .

يقولون : أين الله ، أين عجائبه ؟
وذا الكون سفرناطق ، وهو كاتبه
يشكون ، والإيمان ملء قلوبهم
ويبدون ما كل العقول تكذبه !
عجائب ربى فى الآنا كثيرة
ولكن جهل المرء - لاشك - غالبه !

إن بيوت النحل إنما هي مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها
يد القدرة ، لتكون آية لقوم يتفكرون .

• • •

المبحث الثالث

ما يقرره الطب الحديث في الشفاء بالعسل النحل

يقول عز من قائل : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ،
فيه شفاء للناس) .

اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآني الذي نحن بصددده - من
أول قوله تعالى : (وإن لكم في الأنعام لعبرة) إلى قوله تعالى : (يخرج
من بطونها شراب مختلف ألوانه) - قد اشتمل على ثلاثة أنواع من
الأغذية :

أولها : غذاء حيواني وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتي ، وهو المتمثل في قوله تعالى : (ومن ثمرات النخيل
والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآية لقوم
يعقلون) . وليس المراد « بالسكر » هنا : المادة المحرمة ، كما ذهب البعض
إلى ذلك ، لأن هناك فرق بين السكر (بضم السين وسكون الكاف)
وبين السكر (بفتحيتين على السين والكاف) ، والذين ذهبوا إلى أن المراد
« بالسكر » في الآية الكريمة هي المادة المسكرة : ذهبوا إلى أن هذه الآية
قد نسخت بتحريم الخمر ، ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل

من الله ، لا دخل لها بالسكر الذى يذهب بالعقول ، وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله (ورزقاً حسناً) ، وبدليل أن ختام الآية جاء بـ : (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) .

فكيف يكون السكر آية للعقلاء ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما : اللبن ، والعسل ، فلو لم تشتمل على نعمة مماثلة لهما فى الغذاء الحلال : ما توسطت هذا العقد الفريد .

وأخيراً : فهناك فرق بعيد بين السكر والسكر ، فلا داعى لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد « بالسكر » هو « السكر » ، إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث أن المراد بالسكر (بفتح السين والكاف) هو المادة السكرية العظيمة الموجودة فى ثمرات النخيل والأعنان .

ثالثاً : أنواع من الأغذية : غذاء حشرى ، وهو عسل النحل ، فإذا يقول الطب فى هذا الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضاً فيه شفاء .

وفى قوله تعالى : (مختلف ألوانه) فإن هناك عسلاً أصفر ، وآخر أحمر ، وثالث غامق : كمسل مدغشقر .

ثم أن العسل يحتوى على :

١ - نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .

٢ - أصماغ طبيعية ، وأصماغ النشا .

- ٣ - فيتامينات ا . ب ، وفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .
- ٤ - بعض المعادن : كالسيوم ، والبوتاسيوم ، ثم حامض النحل .
- ٥ - بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

العسل النحل وفوائده

١ - المواد السكرية

• العسل كغذاء :

أهم ما فى العسل ، نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ، كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير ، وهذه ميزة كبرى للعسل للنحل .

والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس . والحركة العادية . ويمكن للإنسان أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالفم ، أو حقناً فى الوريد . . فى الحميات - مثلاً - يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز الهضمى يتلبك أثناء الحميات ، فلا داعى لإشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .

وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضرراً من تحليتها بسكر القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفولوز لا ينقلب إلى سكر بول .

• العسل كملين :

يعطى للأطفال « العسل » كملين ، ويدخل في وصفات المليينات .
كالسنا (سلمكه) ، فيمزج مسحوق « السنا » مع العسل فيزيد قوة
تليينها . ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبير على كوب
ماء دافئ ، فيأتى بلىن أكثر ، وأقل ضرراً ، وهو أحسن من الجلسرين
في هذه الوصفة .

• العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات ، وسكر القصب ينتج من التخمر
ثاني أكسيد الكربون — أى غازات بدون رائحة — ويحدث انتفاخاً
بالبطن ، فإن العسل أقل ضرراً في هذه الحالة من سكر القصب ، لأن
سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ - الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم ، ويسهلان خروجه ، فيفيدان في
أمراض الجهاز التنفسي العادية .

٣ - الفيتامين ج

موجود بكثرة في العسل ، وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ،
فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه
اللينة ، ويظهر لذلك سببان لاستعمال العسل في الحميات ، وهى :
إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم ، وفيتامين « ج » لمقاومة المرض . أما

الفيتامينات « ١ ، ب » فإنها نافعة ، إلا أن كميتها ضئيلة .

٤، ٥ المعادن وبيض النحل

موجودة بكمية صغيرة تزيد في التغذية ، كذا حامض النحل كقو
للعضلات ، أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد في كل زمان :

(١) في تغذية الأطفال والمرضى .

(٢) في علاج تخمرات الأمعاء من تناول الشويات .

(٣) في تحلية سوائل مرض البول السكرى .

(٤) كملين للأطفال .

(٥) ومسهل ، بحقنة شرجية .

(٦) ثم مفيد في حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسي .

• • •

حقائق علمية

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحاً ، ونفصله تفصيلاً يليق بإعجاز
القرآن الذى يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : ننقل هذه الحقائق
العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى :
(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) .

لم يعرف قدر هذه الآفة العلمية الطبية — التي تعتبر دليلاً ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمي — إلا في السنين الأخيرة من القرن الحالى ، فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فهو يعطى بالفم . وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقوياً ، ومغذياً ، وضد التسمم الناشئ عن مواد خارجية ، مثل : الزرنيخ ، والزرنيق ، والكلوروفورم ، وكذلك ضد التسمم الناشئ عن أمراض فى أعضاء الجسم ، مثل التسمم البولى ، والنتائج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء ، وفى الحميات ، والحصبة ، والالتهاب الرئوى ، والسحائى ، وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين — حتى فى حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكرى — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره مصادفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرسن » قد توصلت — بعد تجارب متعددة — إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ، ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة — دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية — يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الإنسان .

• • •

هذا ، وقد انجهدت الأبحاث العلمية التي تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حالياً بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذي يفرزه عن طريق آلة اللسع ، لاستعماله في معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفي أمريكا و إنجلترا حالياً « مناحل » لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله ، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء ، والرمد الحبيبي .

وما زال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التي ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد بلندن امرأة نمساوية تدعى مسز « أوين » تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم ، بقرص النحل . وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماماً كبيراً في أوساط لندن ، لا سيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التي نشرت في صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين في مستشفى « نور فولك » الإنجليزي : استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التي يجريها ، وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشوهات بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التي أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

وقد أعلن البروفسور « كلود هيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى « النحل الملكى » له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم ، وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة .

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

“ “ “

إلهى . . ما أعظمك ! !

خبرنى بربك يا أخا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى أى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمداً منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ما أذهل العقول وحرى الأفكار ؟ إنه الله الذى قال له : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً) .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم - نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول فى إيجازه المعجز : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس) ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » .

هل دخل محمد صلى الله عليه وسلم المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء ، وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ، ولم يتتلمذ على أستاذ من الأساتذة ، وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

وقال له : (اقرأ باسم ربك الذى خلق » خلق الإنسان من علق »
اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) .

المبحث الرابع

الرد على أعداء الإسلام فى « آية النحل »

يحاول المستشرقون - ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين - أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وهم فى الحقيقة أقزام يعضغون الهواء ، ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا ، وأن يطاولوا السماء ، ويمدوا إلى الشمس يداً سلاء . . . !

« العقاد » والرد على المبشرين

وفى كتاب « ما يقال عن الإسلام » للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد ، وقفت على مقال فى هذا الصدد ، رأيت أن أسجله على هذه الصفحات ، لما يحويه من فوائد جلية :

يقول الأستاذ العقاد رحمة الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقدااسة لعلة واحدة فى وقت واحد ، فإن تقبل العقل ذلك فلا بد من سبب يوقعه فى هذا الاضطراب باختياره ، وأكثر

ما يكون ذلك السبب مرضاً من أمراض الجنون، أو هوى دفيناً يحمله على المغالطة ، ويعجزه عن مقاومتها ، أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ، ويصطنعه مع غيره ، لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطئ القول في أن جماعة المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام — آفة من هذه الآفات . فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط في التفكير ، كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية ، أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ، ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه ، أو يعمل عمل المحترف الذي يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ، ولا يعنيه أن يعرض بضاعته ويهيب لها أسباب النفاق في السوق ، وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخلة في العرض والترويج !

وبعد هذه المقدمة : عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا الباطلة التي أثارها المبشر « صمويل زويمر » في كتابه « بلاد العرب مهد الإسلام » في فصل عن « العلوم والفنون العربية » . قال : « صمويل زويمر » في هذا الفصل : « إن « الشهد » لم يزل معدوداً كالترياق في بلاد العرب استناداً إلى القرآن والحديث ، وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب في وحى محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه الكلمة « الغيبة » التي يقول فيها عن النحل إنه (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) . وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذي وصفه الله في كتابه ! !

ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التي افترها ذلك المبشر فيقول :

إن الدجل المتعمد ظاهر في قول هذا العلامة « الغبي » إن القرآن حصر الطب كله في دواء واحد هو « الشهد » . . فإن المعنى الذي تفيده الآية - بغير لبس ولا محاولة - أن الشهد « شفاء » ولم تقل إنه كل الشفاء . ولا إنه شفاء من جميع الأمراض ، فإن وصف « الشهد » بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية ، كما يوصف أى عقار من العقاقير في الصيدليات . .

ومثل هذا الادعاء « التبشيري » لا يعتسف اعتسافاً بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد ، طمساً للحقيقة مع سوء النية .

أما حكم العلامة « بالغبوة » على وصف « الشهد » بالشفاء ، فليس له معنى غير غبوة مطبقة في القائل إن كان مصداقاً لما قال . . لم لا يكون « الشهد دواء من الأدوية . وهو خلاصة أعشاب وأزهار » ؟

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جداً في كل أمة ، وهو قوام للعلاج إلى اليوم في أكثر الأدوية التي يصفها الأطباء العصريون لضروب شتى من الأمراض ، وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة .

وهذا قبل شيوع الكلام عن « الفيتامينات » وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها . .

فلماذا يمتنع على العقل كل الامتناع أن يصف دواء « الشهد »
بوصف غير الغباوة ؟

لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات
والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض ؟

إن « الغباوة » هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة ، أو عجزه عن
فتح الباب لتصورها على كل احتمال .

وإلى هنا قد تكون « الغباوة » مفهومة إذا هي تشابهت في سوء
الفهم ، ولم تخصص للشهد دون غيره ، ولكنها « غباوة » تنزل إلى
ما دون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض « الشهد » علاجاً
ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون
رائحة الشواء سروراً للإله !

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً : بعد وفاة « زويمر » ببضع سنوات
ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعي يقول مؤلفه
عن « الشهد » ما كان « زويمر » يدعيه على القرآن الكريم ،
ويعقد المؤلف لخصائص « الشهد » الطبية فصلاً مستقلاً يوشك أن يجعله
« صيدلية » وافية تغني عن عشرات من العقاقير ، وليس المؤلف واحداً
من أولئك المتطيين الجهلاء ، بل هو الدكتور « جارفس » الطبيب
المتخرج في مدارس الطب الحديث ، وصاحب المباحث العلمية العديدة ،

وهو لا يعلل فائدة « الشهد » في العلاج « بالبركة » ولا بالتأثير النفساني
المستمد من العادة ، ولا بالتغذية الصالحة التي تعمل عمل الدواء ، وإن

لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية ، ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدونها الأطباء والصيدليون في تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التي تحدث الأمراض ، أو تضاعف أضرارها ، ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن « الشهد » خاصة : إنه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان ، بل ويقرر التجربة المحققة التي أثبتت أن « البكتريا » لا تعيش في « الشهد » لاحتوائه على مادة « البوتاس » ، وهي تحرم « البكتريا » تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها .

قال : « إن الدكتور « ساكيت » أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في « فورت كولنز » وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض في « قوارير » مملوءة بالعسل الصرف . . فماتت جراثيم « التيفود » بعد ثمان وأربعين ساعة . . وماتت جراثيم « النزلات الصدرية » في اليوم الرابع . . وماتت جراثيم « الدوسنتاريا » بعد عشر ساعات . . وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات . . » ! !

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية المفورة في « الشهد » فذكر منها الأغذية المعدنية ، وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل في تركيبه ، ونقل تقرير الأستاذ « شويت » العالم الكيماوى الذى يقول فيه : إن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان « الشهد » : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر في « الشهد » الضارب إلى السواد . . والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونة للدم أو الهيموجلوبين . . وبلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب ، كما جاء في القرآن الكريم ، وهو يشير إلى اختلاف ألوانه ، وما احتوته

عن أسباب الشفاء . . ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية في « الشهد »
فعدد منها :

- (١) أنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .
- (٢) أنها سريعة التمثيل في البنية .
- (٣) أنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .
- (٤) أنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة
- (٥) أنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .
- (٦) أنها مهدئة لمطفة .
- (٧) لأنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم ، فضلاً عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب في بيان خصائص « الشهد » النافعة للعلاج وغذاء
الكبار والصغار ، ولم يذكر في سائر الفصول دواء طبيّاً ، آخر ، له مثل
هذه الخصائص ، أو لخصائصه ، مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة
وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعي ، فذكر كلمة « زويمر »
عن الآية القرآنية ، ووجدتها مثلاً أصح من كل مثال لإبراز « عقلية
المبشر » بما طوته من عيوب الزيف والتعصب والمغالطة ، مع عيوب
الغباوة والغنى في كثير من الأحيان ، ولا حيل أن نصيب « زويمر »
من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته في ميدان التبشير ، إلا أنها عدة

لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه ، بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها ، لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الإسلام . (انتهى كلامه)

• • •

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة — إلا أن نجمع هذه الآيات — التي سبق الكلام عنها الآن — لتكون صورة متكاملة أمام القارئ ، قال جل شأنه : (وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم ؛ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين • ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون • وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون • ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) . صدقت يا إله العالمين !

• • •

لقد أفضنا في الحديث عن هذه الآيات ، لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، وتقطع الطريق على كل (أفاك أثيم • يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم • وإذا علم من آياتنا شيئاً ، اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين) .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم ، أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد

نظاماً أو تشيد، كوناً متكاملًا منسقاً . كل ما فيه ينطق بالحكمة وينبئ
العبث ؟ !

سبحانك ربى ! أنت خالق كل شىء ، وأنت على كل شىء قدير .

يا من لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل
والنهار ، وهو الواحد القهار ! !

الإيجاد والعدم

وننتقل بنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى النهاية المحتومة ، والمصير
المكتوب على كل إنسان ، فيقول تعالى : (والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ،
ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم
قدير) .

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد - بعد آيات النعم - إلى أنه لا بد من
المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين . . لذلك ، فإننا نرى الكتاب العزيز
في مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى . .

اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه : (أأنتم أشد
خلقاً ، أم السماء ! بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها ،
وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها
ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم) .

وبعد هذا ، نبه إلى المصير المحتوم ، الذى لا بد أن نلاقه جميعاً .

فقال عز شأنه : (فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى) .

ثم انتقل معي إلى مشهد قرآني آخر ، يزيد المعنى تأكيداً ، حيث يقول الله جل شأنه : (فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صبينا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبثنا فيها حباً . وعبأ وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم) .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعاً ، فيقول جل شأنه : (فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وهكذا أيها القارئ الكريم ، يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت ، فهي مولية . وأن الحياة مهما طالت ، فإنها منتهية . فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر : (والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر . لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير) .

فالله تعالى يخبر في هذه الآية الكريمة عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف في الخلقة ، كما قال تبارك وتعالى : (الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير) .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى ، والحرف ، وسوء الحفظ ، وقلة العلم ، ولهذا قال : (لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) أى بعد ما كان عالماً ، أصبح لا يدري شيئاً .

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل ، والكسل ، والهزم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » .

• • •

عود إلى أدلة التوحيد

بعد ما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق ، جاءت الآية السابقة (والله خلقكم ، ثم يتوفاكم) لتبين أن المصير في النهاية إلى الله الخالق العظيم ، ثم عاد النظم الكريم يحدثننا عن القضية الأصلية الأساسية التي تدور حولها الأدلة ، وهي قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطاباً منطقياً سديداً . . . يخاطب الذين زعموا أن الله شركاء : (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) فقال جل شأنه : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم ، فهم فيه سواء ، أفبنتعمة الله يجحدون ؟ !

يخبر مولانا تبارك وتعالى في هذه الآية عن جهل الضالين المضلين . المشركين المارقين ، ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء . وهم يعترفون أنها عبید له ، كما كانوا يقولون في تلييتهم في حجهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما أملاك ، فقال تعالى منكرأ عليهم : أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبیدكم فيما رزقناكم — وكلمة « الرزق » هنا : كلمة شاملة عامة ، تشمل كل ما يوجد الله به على الإنسان ، وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن فكيف يرضى — هو تعالى — بمساواة عبید له في الألوهية والتعظيم ؟ كما قال في الآية الأخرى ، التي تطابق هذا المعنى في إيضاح قضية الوحدانية توضيحاً لا لبس فيه ، ولا غموض .

وهذه الآية في سورة « الروم » ، حيث يقول جل شأنه : (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيما نكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) .

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية « الروم » هذه جاءت عقيب عقد فريد انتظم عديداً من الأدلة على الوحدةانية . . مثله في ذلك كمثل آية « النحل » التي نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية « الروم » — السالفة الذكر — قوله تعالى : (يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون) . ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتغواكم من فضله ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السماوات والأرض ، كل له قانتون . وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم) .

ثم بعد بيان هذه الأدلة المضيفة بنور الوحدانية ، تأتي الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك فتقول : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيماكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء) .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك في رزقك ، فكيف ترضى ذلك للمخلوق الباريء المصور ؟ وكيف تدعى — زوراً وبهتاناً — أن معه من عباده من يساويه في الألوهية والعظمة

سبحانك ربى ! يا من تقول في الحديث الجليل : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني فيهما أدخلته ناري » .

نعم يا رب العزة : (فما الذين فضلوا ، برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم ، فهم فيه سواء) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه في هذه الآية الكريمة : لم يكونوا لبشركوا عبيدهم في أموالهم ، فكيف يشركون عبيدى معى في سلطانى ؟
فذلك قوله تعالى (أفبنعمة الله يجحدون) ؟

ويقول ابن عباس أيضاً : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟

وقوله تعالى : (أفبنعمة الله يجحدون) : أى أنهم جحدوا نعمة الله ، فأشركوا معه غيره ، وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة ، بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك ، فيذكر لنا نعمة هي من جليل النعم التي امتن الله بها على عباده ، فيقول جل شأنه : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أفالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون ؟) .

أى منطق ، وأى عقل سليم يمعن النظر في هذه الآية ، ثم لا يلتقي باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ويكفر بنعمة الله ؟ .

فالله جل شأنه يخبر في هذه الآية الكريمة أن من نعمه على عباده ، أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً : من جنسهم ، وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ، ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور . ثم ذكر جل جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد . قال شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وبنين وحفدة » : وهم الولد ، وولد الولد . وفي قوله تعالى : (ورزقكم من الطيبات) إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة . . فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم . فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التي ينعم بها الإنسان ، وواجبه شكر المنعم عليها :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تنزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النعم

يا ابن آدم :

يا من بدنياه اشتغل وغره طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

• • •

وبعد هذه النعم كلها يأتي الاستفهام الإنكارى : (أفبالباطل يؤمنون .
وبنعمة الله هم يكفرون) ؟ ! بل ويأتي عقيب ذلك قوله تعالى : (ويعبدون
من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ،
ولا يستطيعون) ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « إن الله يقول للعبد
يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟

وأما قوله تعالى : (فلا تضربوا الله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)
فقد جاء نتيجة لمقدمات صحيحة : إذ قد ثبت أن الله واحد أحد .
فلا يليق بعقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ،
لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيهاً
بالمخالق ؟ ! !

والضلال كله أن يحب الناس خمساً وينسون خمساً : يحبون المخلوق
وينسون الخالق ، يحبون المال ، وينسون الحساب ، يحبون القصور ،
وينسون القبور ، يحبون الدنيا ، وينسون الآخرة ، يحبون الذنوب ،
وينسون التوبة ! !

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكباً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً
(إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)

إيضاح وتبيين

لما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا ، بل هى أعظمها جميعاً ،
فإن القرآن الكريم أورد حشداً كبيراً من الأدلة ، وأراد أن يزيد بها
إيضاحاً وتقريراً ، فضرب مثلين . . إذ بالمثال يتضح المقال ، قال جل
شأنه : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه
منازقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهرأ ، هل يستوون ؟ الحمد لله ،
بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً رجلين : أحدهما أبكم
لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير :
هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ . والله غيب
السموات والأرض ؛ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ،
إن الله على كل شيء قدير . والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون
شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم
يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى
ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

معنى المثل الأول :

ضرب الله مثلاً لكل ما يعبد من دون الله في أى زمان أو مكان والله تعالى هو الواحد الخالق البارئ ، فاطر السماوات والأرض ، واهب الوجود ، والمنعم بكل شيء موجود : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً) لما لكه ، وهو لا يقدر على شيء أبداً ، فلا ينفع نفسه ، ولا غيره ، وحرأرزقناه منارزقاً حسناً ، وأعطيناه مالا وفيراً ، فهو ينفق من المال سرأوجهرأ في جهات الخير والبر : هل يستوى هذا العبد الذى لا خير فيه ، مع هذا الحر الغنى المنفق في وجوه البر والخير ؟ وهل يستوى الضار والنافع ؟ ! !

لا يستوى هذا وذاك أبداً ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله ، وتباركت أسماؤه ، صاحب النعم ، وله ملك السماوات والأرض ، يده مبسوطتان ، ينفق كيف يشاء ؟ ! !

الحمد لله ، والثناء الجميل ، والشكر الجزيل لله الواحد القهار ، المنعم بجلال النعم ، والمتفضل بدقائقها ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . . هو المستحق وحده الحمد والثناء ، لا إله إلا هو : (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون الحق فيتبعوه ، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصوه وحده بالتقديس والتزيه .

ومعنى المثل الثانى :

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً لنفسه ، ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية ، وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة ، وهى لا تضر ولا تنفع ، فقال :

(وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم) أى عيى مفحم ، مقطوع اللسان أخرس ، لا يقدر على شىء أبداً لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق (كل على مولاه) أى يقوم بحاجته ، ولا يؤدى عمله لنفسه ، فهو ثقل على قرابته . . هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شىء أبداً ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه إلى أى جهة أخرى لا يأت بخير قط ، لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له . .

هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف ، والذى يأمر بالعدل ، ويسر بالعدل ، ويحكم بالعدل ويأمر بالعدل ، وينطق ، ويفهم ، ويتصرف على أتم وجه وأكمل ؟ ! ! وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ، وسيرة صالحة ، لا إفراط فيها ولا تفريط ؟ ! !

والنتيجة :

نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين ، أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى مع الله . . فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه

الحدوث . وواجب له البقاء ، فاستحال عليه الفناء . وواجب له القيام بالنفس ، فاستحال في حقه الاحتياج إلى غيره ، ووجبت له المخالفة للحوادث ، فاستحال في حقه المماثلة لغيره ، وواجب له الوجدانية ، فاستحال في حقه الشرك والتعدد . ووجبت له القدرة ، فاستحال عليه العجز ، ووجبت له الإرادة ، فاستحال في حقه القهر والجبر ، ووجب له العلم ، فاستحال في حقه الجهل ، ووجبت له الحياة ، فاستحال في حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر ، فاستحال في حقه الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى ، فاستحال في حقه البكم .

وغاية الأمر أن كمالات الله لا تتناهى . . لا يحصرها عد ، ولا يحيط بها حد : (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) .

مع القدرة الباهرة ، والعلم المحيط

وبعد الحديث عن الوجدانية ، ينتقل بنا النظم الكريم إلى الحديث عن العلم المحيط ، والقدرة الباهرة ، فيقول جل شأنه : (والله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير) .

يخبر مولانا تبارك وتعالى في هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم

قدرته على الأشياء . . فهو تعالى يعلم غيب السموات والأرض ، وأنه مختص بعلم الغيب لا شريك له ، فلا اطلاع لأحد على ذلك ، إلا أن يطلع الله تعالى من يشاء على ما يشاء ، قال جل شأنه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول) .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون) ، (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) . أى فيكون ما يريد سبحانه كطرف العين . وهكذا قال ههنا : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير) ، وكما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

° ° °

هذا خلق الله !!

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدره الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعث بالقرآن . . فإن الأطوار التى يمر الإنسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام ينحبر عنها مولانا فيقول : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . .
فما هو الرحم ؟

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات ، وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات . . والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم : قراراً مكيناً ، حيث يقول جل شأنه : (ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا ، فنعم القادرون) ؟

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ! بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : (نخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) .

فليُنظر الإنسان مم خلق ؟

مم خلقنا ؟

من كائن منوى . مفرطح الرأس ، طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر ، وتبلغ سرعته إلى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر في الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان !!

فكيف كان حالنا في الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ، ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسيجين اللازم ، وجعل درجة الحرارة في الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء ، وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر - وهو في الأرحام - خمسة أرطال ، وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرطال ، أو ثمانية ... فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا ، وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته ، - حيث أصبح الإنسان ضعيفاً ثقيلاً عليه - فتقلصت العضلات ، فعبّر الإنسان هذا المضيق الدقيق !!

والقرآن يجمع تلك الحقائق في آيات معجزة فيقول : (من أى شيء خلقه ؟ . من نطفة خلقه فقللوه . ثم السيليل يسره) .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) .

وبنظرة فاحصة في قوله تعالى : (لا تعلمون شيئاً) : تفيد نفي العلم بالكلية . . إذ يقول علماء اللغة إن النكرة في سياق النفي : تفيد العموم . ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ، ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ، ولتقابل هذا بالشكر . . والشكر لله : أن تسخر نعم الله في طاعته ، وأن لا تستعملها في معصيته :

قال موسى عليه السلام لربه : « يا رب : كيف أشكرك » ؟ . . قال له يا موسى : « تذكرني ولا تنساني : إنك إن ذكرتني : شكرتني ، وإن نسيتني : كفرتني » وهذا مصداق قوله تعالى : (فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون) .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره ، وعجز في يديه . وهو يردد بلسانه قائلاً : « الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه » . فقال له الرجل : فن أي شيء عافاك ؟ قال له : « وهب لي قلباً ذاكراً ، ولساناً شاكراً » !

ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربّي إذ هداني إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لساني كل وقت ويعرفه فؤادي باللطيف !

عالم الطير

وينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى آية المشاهدة لتدل على عظمة الإله الخالق المهيمن وأن تلك الآية : هي عالم الطير ، حيث يقول جل شأنه : (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

يقول المفسرون في هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض : كيف جعله يطير بجناحين في جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها ، كما قال تعالى في سورة الملك : (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير) .

واعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير . . فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار : كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته في هذه الدنيا التي يعيش فيها ، ويطير في أجوائها ؟

يقول علماء الكون إن الجهاز الهضمي للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمي في الحيوانات مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع . . إذ يمتد من رأس كل طائر جزء

صلب خال من الأسنان ، عظمى التركيب ، هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم والشفيتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ ، وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة - كالبوم والحدأة - ذات منقار قوى مقوس حاد ، على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم . .

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة ، كالمغرفة . تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة ، كالأسنان . لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التى تلتقط الحب من الأرض : فنناقيرها صغيرة مدببة ، لتؤدي هذا الغرض .

بينما منقار البجعة - مثلا - طويل طولا ملحوظا ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ، ليكون كشبكة الصياد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتى غالباً ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام .

ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

• • •

تأمل معى : من الذى هيا لعالم الطير هذا النظام ، وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » .

هل تستطيع الطبيعة السماء ، أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع ، والإتقان الحكيم ؟ ! ! (قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

من النعم الإلهية

وتسير بنا الآيات فى زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعماً من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الإلهى ، فيقول سبحانه : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً

تستخفونها يوم ظعنكم ، ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها ، وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكنناً ، وجعل لكم سراييل تقيكم الحر ، وسراييل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون . فإن تولوا ، فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون .

يخبر مولانا تبارك وتعالى في هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده ، بما جعل لهم من البيوت ، التي هي سكن لهم ، يأوون إليها ويسترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم ، في السفر والحضر .

ولهذا قال : (تستخفونها يوم ظعنكم) ، أي في أسفاركم (ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها) : أي من الغنم ، (وأوبارها) . أي الإبل ، (وأشعارها) : أي المعز ، والضمير عائد على « الأنعام » . (أثاثاً) : أي تتخذون منه أثاثاً ، يعني كل ما ينتفع به من أثاث البيوت ، وهو أهم من المال والثياب ، إذ أنه قد يكون مصدراً للربح في التجارة ، وتصنع منه البسط والسجاد . وقوله تعالى : (ومتاعاً إلى حين) : أي إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم .

وقوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظلالاً) : أي مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالاً تستظلون بها من وهج الشمس

وزمهير البرد ، والله جعل لكم من الجبال أكنناً ومغارات تأوون
إليها من العدو ، أو خوف الشمس ، أو من زحمة الناس ، وجعل
لكم سراييل تقيكم الحر ، من القطن والكتان والصوف وغيرها (وسراييل
تقيكم بأنسكم) كالدرع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل
في الحروب .

وقوله تعالى : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) : أى هكذا
يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون لكم
عوناً على طاعته وعبادته .

• • •

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها
- وهى سورة النحل - تسمى أيضاً سورة « النعم » ، وذلك لما اشتملت
عليه من الآلاء العظيمة ، والنعم الكريمة .

• • •

لمحة قرآنية

إنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارىء لكتاب الله العزيز بعين البصيرة . .

فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى . وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقبته عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذى لا يقابل هذه النعم بما يليق بها من شكر الإله الواحد ، وذلك كما جاء فى سورة « الرحمن » عقبته كل نعمة بـ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

وفى سورة : « النحل » جاء عقب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) ، ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهداً آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) إلى قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات) .

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم

عن الشكر ، فقال سبحانه : (أفتالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون) .

ثم استعرضت السورة مشهداً ثالثاً من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) إلى قوله جل شأنه : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) .

ثم عقت على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر النعم ، فقال سبحانه : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون) .

وقد ذكر أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ، فقراً عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) ، فقال الأعرابي : نعم ، قال : (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً) الآية ، قال الأعرابي ، نعم ، ثم قرأ عليه .. وكل ذلك يقول الأعرابي : نعم ، حتى بلغ : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ، فولى الأعرابي : فأنزل الله تعالى : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون) . تلك ملاحظة أولى :

وقد أظهرت لنا موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغي عليه أن يكون مقرأ بالفضل ، عارفاً بما يكافئ جزيل النعم ..

وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين ، لبنين عظيمين ، وفقاً لموقف الشكر والصبر : نبي الله إبراهيم ، ونبي الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

يقول القرآن في حق إبراهيم الخليل عليه السلام : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه ، اجتنباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة ، وإنه في الآخرة : لمن الصالحين) .

ويقول في حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : (واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك في ضيق مما يمكرون) .
فما أجمل الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الضراء . . !

وكما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله هو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

أما الملاحظة الثانية :

فقد سبق أن قررنا أن القرآن الكريم - في مواضع كثيرة - بعدما يذكر نعم الله في الدنيا على عباده ، ينبه عقولهم ، ويشد أفتدتهم إلى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء ، وقد سبقنا الشواهد الدالة على ذلك .

وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد . . فإله تعالى - بعدما ذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة - أخذ بأيدينا ليوقف عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سنبحانه : (ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا

العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون .

ليس لها من دون الله كاشفة :

وهكذا . . وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقنا بتمثيل أدورانا على مسرح الحياة ، وثمرتنا بنعم الله . . ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآني الذي يأخذ بالألباب ، ويجعل القارئ يستولى عليه العجب ، حيث يجد هذه الصور الرهيبة في عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب ، فلا يخفف عنهم ، والمشركون يرون الشركاء ، فيلزمونهم الحجة ، والذين كفروا وصلوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب ، وكل نبي يشهد على أمته بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعدارهم ، وبطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : (هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، وقوله تعالى : (ولاهم يستعتبون) : أى لا يطلب منهم العتبي . . أى الرضا .

إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا ، وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه في الدنيا ، وذهبت

السكره ، وحلت الفكرة ، وانقض السوق ، فربح فيه الراجحون ،
وخسر فيه الخاسرون .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب ، فالآخرة دار حساب
ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمتي فلا يقبل من أحدهم أن يقول :
(يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً • ياويلتي : ليتني لم أتخذ فلاناً
خليلاً) ، (ياليتني لم أوت كتابيه • ولم أدر ما حساييه • ياليتها كانت
القاضية) ، (يا ليتني كنت تراباً) ، (يا ليتني قدمت لحياتي) ،
(يا ليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا) . . عندئذ يقول لهم : (أو لم
نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ؟ • فذوقوا ،
فما للظالمين من نصير) .

فبادر يا أخى بالرجوع إلى الملك الديان قبل فوات الأوان ،
حيث لا ينفع الندم .

عجوز تمت أن تكون صبيصة . وقد نحل الجنان واحد ودب الظهر
فسارت إلى العطار تبغى شبابها . وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

• • •

قوله تعالى : (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ، فلا يخفف عنهم
ولا هم ينظرون) ، أى لا يفتر عنهم ساعة ، ولا هم يؤخرون عن
تنفيذ حكم الله فيهم : (ورأى المحرمون النار فظنوا أنهم واقعوها ،
ولم يجدوا عنها مصرفاً) (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ،
ينظرون من طرف خفي) .

فاتى دعوة المظلوم . ولو من كافر ، فالظلم ظلمات يوم القيامة . .
ومن كفر . فعليه كفره .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرأ فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تثام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك ، وعين الله لم تم !

المحكمة الإلهية العليا

قوله جل شأنه : (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا :
ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول
إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا
يفترون) .

هذه وقفة في محكمة الجنايات الإلهية العليا للحكم في أكبر جنائية
ترتكب ألا وهي : الشرك ، الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا :
(إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن
يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) .

وقد دارت المناقشة بين المشركين والآلهة في هذه الجلسة العاصفة
على النحو التالى :

قال المشركون : (ربنا هؤلاء الذين كنا ندعوا من دونك) .
فردت عليهم الآلهة التى كانت تعبد في الدنيا : (إنكم لكاذبون) ! !
وهذا مصداق لقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من

لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » وإذا حشر
الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) .

ومصداق لقوله جل شأنه : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا
لهم عزاً . كلا ، سيكفرون بعبادتهم ، ويكونون عليهم ضداً) ،
وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام : (ثم يوم
القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً) .

وقوله تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) .

فاذا يقول المشركون ، بعدما لزمتهم الحججة ، وحق عليهم القول ؟
إنهم كما قال الله : (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) : أى ذلوا واستسلموا
يومئذ ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : (أسمع بهم وأبصر
يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى ما أسمعهم ،
وما أبصرهم !! وهو أسلوب فى التعجب .

وكما قال تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى خضعت ، وذلت
واستكانت ، وأبانت ، واستسلمت : (وقد خاب من حمل ظلماً) ،
وقوله تعالى : (وضل عنهم ما كانوا يفترون) : أى ذهب واضمحل
ما كانوا يعبدونه ، افترأ على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها
المبرم الذى لا يقبل استئنافاً ولا نقضاً ، فقال سبحانه : (الذين كفروا
وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) :

أى عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس من اتباع الحق .
كقوله تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه) : أى ينهون الناس عن
اتباعه ، ويبتعدون هم منه أيضاً : (وإن يهلكوا إلا أنفسهم وما
يشعرون) .

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون
فى درجاتهم ، فإن الجنة درجات ، والنار دركات : (قال لكل ضعف .
ولكن لا تعلمون) .

صاحب اللواء المعقود

صلى الله عليه وسلم

اختتم الله هذا المشهد الرائع ، وهذا الموقف الرهيب بقوله : (ويوم
نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيداً على
هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ ، وهدى ، ورحمة ،
وبشرى للمسلمين) .

هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ
على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة « النساء » . فلما وصل
إلى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على
هؤلاء شهيداً) . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسبك .
فقال ابن مسعود : فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان الدمع » .

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والخوض

المورود . . إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى سيشهد على هؤلاء جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء والرسل ، الصادق الأمين وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب ، الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : (إن هذا القرآن هدى للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) ، (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيداً) .

فكيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشف » رحمه الله ، فيقول :

« فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعته : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) . وحثاً على الإجماع فى قوله : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى . ونصله جهنم ، وساءت مصيراً) ، وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأئمة اتباع صحابته واقتفاء آثارهم فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أصحابي كالنجوم : بأيهم اقتديتم ، اهتديتم . وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة . والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان ، الكتاب ، فن ثم : كان القرآن تبياناً لكل شيء » اه كلامه .

صدقّت يا ذا الجلال والإكرام ، يا من قلت : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ، وقلت : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقلت : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) وصدق رسولك الكريم ، إذ يقول : « لقد جئكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حياً : ما وسعه إلا اتباعي » ، وإذ يقول : « أوتيت القرآن ومثله معه » .

فما من نظام مستقيم وعادل في هذه الدنيا إلا نظام الإسلام : (تنزيل من حكيم حميد) ، (وأن هذا صراطي مستقيماً ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

قواعد البناء القوية

بعد ما بينت الآية السابقة شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، عقبته بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ، ليكون تبياناً وتوضيحاً ، وسراجاً منيراً ، يضيء مسالك الحياة ، ويكون هادياً ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، حيث ، انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة والأركان التي لا تهتز ولا تختل ما بقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب ، فقال سبحانه : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) .

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء ، والنهى عن ثلاثة أشياء :

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن أجمع آية في القرآن في سورة « النحل » هي قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية .

وقد ذكروا أن الحكيم العربى « أكرم بن صيفى » أرسل وفداً من أتباعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ، فالتقوا به ، فقالوا : نحن رسل أكرم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبى

صلى الله عليه وسلم « أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا :
 فأنا عبد الله ورسوله » ، قال ثم تلا عليهم هذه الآية : (إن الله يأمر
 بالعدل والإحسان) الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم
 حتى حفظوه ، فأتوا أكرمهم ، فقالوا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن
 نسبه : فوجدناه زاكى النسب ، شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات
 قد سمعناها ، فلما سمعهن أكرمهم قال : « إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ،
 وينهى عن ملامئها ، فكونوا فى الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه
 أذناً » !

العدل ونتائجه ، والظلم وعواقبه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولاً ، والإحسان ثانياً .
ثم بإيتاء ذى القربى .

والعدل هو القاعدة الأصلية فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشيء فى موضعه . وإقامة الميزان بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقومها : فإن الظلم يدمرها ويهلكها ، وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك . . قال جل جلاله (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) ، وقال : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ، وقال : (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) ، وقال : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة . فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) ، وقال : (وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) ، وقال (فبظلم من الذين هادوا ، حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) .

وهكذا تقوم الأمم بالعدل ، وتدمر بالظلم .

أما الإحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً :

فالإحسان تفضل وكرم ، ولذا : فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل :
 (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) ويقول فى شأن الإحسان :
 (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ويقول فى شأن العدل : (وجزاء سيئة
 سيئة مثلها) وفى شأن الإحسان : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ،
 ويقول فى شأن العدل : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من
 سبيل) وفى شأن الإحسان : (ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم
 الأمور) .

وقد جل جلال الله إذ يقول : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين
 لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا
 هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون) .

فبالعدل قامت السموات والأرض ، وبالعدل تقوم الحياة الهادئة
 المطمئنة . . إذ هو ميزان الحياة الصحيحة ، به تطمئن النفوس ،
 وتنشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم ، والحكام على أنفسهم .
 وأن أى مجتمع يزول من بين أفراد العدل وتقوض أركانه لهُو جدير
 بالمهانة ، وتحقيق بالدلة . . إذ يقول المعصوم صلى الله عليه وسلم فيما
 يرويه معاوية رضى الله عنه : « لا تقدر أمة لا يقضى فيها بالحق ،
 ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى » .

فالعادل من حفظ نفسه من الجور ، وعدل مع ربه وخالفه ورازقه ،
 فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وراقبه فى السر والعلن ، وكان الله
 ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين ، فقال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عفت فعفوا ، ولو رتعت : لرتعوا .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه ، فقد رآه رجل من الفرس ينام فى ظل شجرة ، وهو مستغرق فى نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل ، فوقف الفارسى يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟ ! ثم قال : « حكمت فعدلت . فأمنت فمنت يا عمر » .

وهذا المشهد يصوره شاعر النيل فيقول :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرأ بين الرعية عطلا وهو راعيا
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا بردة كاد طول العهد يلبيا
رآه مستغرقاً فى نومه ، فرأى فيه الجلالة فى أسمى معانيها
وحسبه بملوك الفرس أن لها سوراً من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق ، أصبحت مثلاً وأصبح الجليل بعد الجليل يروها
أمنت لما أقت العدل بينهمو فمنت نوم قرير العين هانها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها بفضل ربك حصناً من أعاديها
ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لا تصلح لها الطريق يا عمر ؟ !

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوم من إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة ، وحده يقام فى الأرض بحقه : أزكى من مطر أربعين صباحاً » .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلساً : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلساً : إمام جائر .

إذا كانت هذه هي مكانة العدل : فإن الإحسان فيه زيادة عن العدل ، وفضل ورحمة وكرم ، وقد يأتي الإحسان بمعنى آخر ، كما بين ذلك الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم في قوله : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه : فإنه يراك » فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات وقلوب الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء في باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : « أن تعبد الله كأنك تراه » ، ودرجة المراقبة : « فإن لم تكن تراه : فإنه يراك » .

وهذا يعمل الضمير الحى عمله . . فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلاً يغش اللبن بالماء ، فقال له : يا هذا : ماذا تقول إذ قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء . ؟

نعم : إن « الضمير » هو السلطة التى تدفع النفس إلى مراقبة ربها وخالقها ، والاستشعار بمهيمنة سلطانه .

وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن هذا الفعل ، ولكنها عادت وغشت اللبن ، فقالت لها ابنتها : يا أماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ فقالت

لها : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟ قالت لها : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا .
فإن الله رب العالمين يرانا ! وكان عمر في هذه الأثناء يمر يتفقد الرعية .
فرآها تغش اللبن ، فقال لها : يا عجوز ألم أنهك عن غش اللبن ؟ قالت :
والله ما غششته يا أمير المؤمنين . . وإذا بصوت « الضمير » ينبعث من
داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها — يقول لها : يا أماه أتعشين المسلمين .
وتعشين في اليمن ، وتكذبين على أمير المؤمنين . ؟ !

وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر رضى الله عنه ، ولها
رنين قوى أنقى من رنين الذهب ، فهل يقف عمر منها موقفاً سلبياً ؟ كلا !
لقد زوجها لابنه « عاصم » فأنجبت منه فتاة اسمها « ليلي » ، هذه الفتاة
تزوجت عبد العزيز بن مروان ، فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر
ابن عبد العزيز ، الخليفة الزاهد ، العادل ، الرحيم ، . . ذلك الذى يوم
مات قال رعاة الغنم فى شواحق الجبال : اليوم مات عمر ، قيل : وما
أدراكم بموته ؟ قالوا : لأن الذئب قد عدا على الغنم ، وما عهدناه كذلك
فى حياة عمر . .

ولما تحقق الناس من الخبر ، وجدوه قد مات فعلاً .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة ، وهى
أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها ، فقال لهم « أخلصت
ما بينى وبين ربى ، فأخلص الله ما بين الذئب والغنم » .

هكذا صارت بنت بائعة اللبن : فى بيت الإمارة . . وهكذا صارت
جدة لأمبر المؤمنين .

وهكذا يقوم الإيمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .

صدقتم يا سيدى يا رسول الله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .
فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

صلة الرحم

أيها القارئ الكريم : بإقامة العدل تحيا النفوس . وبالإحسان يرتفع شأنها ، وبيئات ذى القربى يعم الإخاء والرحمة ، فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم ، وأول الأرحام في « كشف » الصلة : الوالدان ، يليهما الأقرب ، فالأقرب .

ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عطف على لفظ الجلالة في قوله تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً) .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أى ؟ قال بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله » .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانة الوالدين على أولادهما ، حيث يقول : « لا يجزى ولد والد إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » .

هذه توجهات نبوية وإرشادات إسلامية نحث على صلة الرحم ،
لما فيها من الفضائل والمزايا :

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم
الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ،
ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

تأمل معي أيها القارئ الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى في هذا
الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن
الله تعالى خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا
مقام العائد بك من القطيعة ، قال : نعم ! أما ترضين أن أصل من وصلك ،
وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ! قال : فذلك لك ، ثم قال صلى الله عليه
وسلم : اقرأوا إن شئتم : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض
وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)
وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : « ومن وصلك وصلته ، ومن
قطعك قطعته » .

فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها ، فإن الله تعالى جل جلاله
يقول فى الحديث القدسى : « أنا الله ، وأنا الرحمن ، وقد اشتقت للرحم
اسما من اسمى : فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذى القربى وإيتائهم حقهم ،
فلا نهم أولى الناس بالمعروف . قال عليه الصلاة والسلام : « الصدقة على
المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنان : صلة ، وصدقة » . وليس معنى

هذا أن ذوى القربى هم المخصوصون بالصلة ، بل هم أولى الناس بالصلة ، لأن هناك رحماً عامة : هم كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة : كأن يعودوه إذا مرض ، ويشيعه إذا مات ، ويسلم عليه إذا مر به وينصحه إذا استنصحه ، ويحببه إذا دعاه ، ويفرح له إن كان فى خير ، ويحزن من أجله إن كان فى شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة ، تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطاً يقوم على العدل والإنصاف ، دون ظلم أو اعتداء : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

• • •

وهذا تعليق على قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية . .

لقد اشتملت هذه الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ، ونواه ثلاثة :
أما الأوامر الثلاثة فهي :

العدل — والإحسان — وإيتاء ذى القربى

وأما النواهي الثلاثة فهي :

الفحشاء — والمنكر — والبغى

فالبغى ، والعدل نقيضان لا يجتمعان .

والإحسان ، والمنكر : ضدان لا يلتقيان .

وإيتاء ذى القربى ، والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعادل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى : فضائل .

والفحشاء ، والمنكر ، والبغى : رذائل .

وفي لفظ « الفحشاء » ما يشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث تجاوز كل لياقة .

ولذلك نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ « الفحشاء » ، فيقول في نكاح زوجة الأب « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . . ويقول في شأن الزنا : « ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ، ويقول في شأن الشذوذ الجنسي : (ولو طأ إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ !) .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرها . . من أجل ذلك ورد النهى عنها في كل صورها ، قال تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ، وقال جل شأنه : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

أما المنكر : فهو كل ما تنكره الأذواق السليمة ، ولا يقره العرف الصحيح . . ذلك لأن المنكر ضد المعروف ، وقد وردا في آيات كثيرة ،

كما فى قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض :
يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وفى وصية لقمان لابنه :
(يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على
ما أصابك) ، وفى قوله جل شأنه (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ،
ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر) .

وبنظرة فاحصة فى الكلمتين : نستطيع أن نترك الفرق الشاسع بينهما .

ف « المعروف » فى ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر
إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

و « المنكر » فى قبحه ، وسوء فعله ، ونفور النفوس السليمة منه :
كظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج الإنسان يده لم يكدرها .

فأكل مال اليتيم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات
الغافلات : منكر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها : منكر ، والتولى
والفرار من الجهاد : منكر ، والغيبة ، والنميمة ، وقطع الطريق . . كل
هذه منكرات نهى الله عنها ، وشدد الوعيد ، لمقر فيها .

الظلم ظلمات يوم القيامة

أما « البغى » : فهو تجاوز الحد ، وترك العدل والإنصاف ، مما يترتب عليه الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وكلمة « الظلم » من أبشع الكلمات وأقساها وقعاً على النفس ، حتى كان اصطدام النفوس بها كاصطدام مطارق الحديد بأواني الفخار .

ويكفي للدلالة على ذلك أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى في حق الظالمين : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وقوله جل شأنه : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) ، وقوله تعالى : (وما للظالمين من ولي ولا نصير) .

استمع معي إلى هذا الحديث القدسي الجامع الذي رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل جلاله إذ يقول :

« يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم ، فلا تظالموا .

يا عبادي : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي : كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ،
فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى ،
فتنفعونى .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على
أتق قلب رجل واحد منكم : ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر
قلب رجل واحد منكم : ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد
واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته : ما نقص ذلك مما عندى
إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفىكم بإياها ، فمن وجد
خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .
رواه مسلم

. . .

لقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظام الأمور . .
ويكنى أن نقف عند قوله جل شأنه : (حرمت الظلم على نفسى) .

فببحان صاحب العدل المطلق ، والعظمة الإلهية ! !

• • •

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

تأمل معي هذه العدالة المطلقة في رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين .

جاء في الحديث الشريف : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (١) رواه مسلم .

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الإسلام لها : وقف الرسول ﷺ في حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : « إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد . « ثلاثاً » ويلكم - أو ويحكم - انظروا : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .
رواه البخاري

ثم انظر - بعد ذلك - إلى من يغتصب حق أخيه المسلم بغير حق .

(١) الشاة الجلحاء : هي التي ليس لها قرن .

فيغير حدود الأرض — مثلاً — ما شأنه ؟ وما حاله يوم القيامة ؟ يقول
الحديث الشريف : « من ظلم قيد شبر من الأرض : طوقه من سبع
أرضين » !!

. . .

إذا غرتك قوتك يا ابن آدم : فلم استحكمت فيك شهوتك ؟ وإذا
غرك غناك : فارزق عباد الله يوماً !!

إياك والظلم — يا أخى المسلم — فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : « إن الله يملئ للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : وكذلك أخذ
ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد » .

وهذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل رضى الله
عنه حين بعثه إلى اليمن ، قال : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ،
فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله : فإن هم أطاعوا
لذلك ، فاعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم
وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة
تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فإياك
وكرائم أموالهم . اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

. . .

هذا بيان للناس

أخي القارئ الكريم :

وهكذا طفت بك طوافاً مباركاً حول هذه الآية الجامعة ، التي ورد
الأمر فيها بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وجاء النهى فيها عن
الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، وكان ختامها قوله تبارك وتعالى : « يعظكم
لعلكم تذكرون » .

فالوعظ من الله : إرشاد وتوجيه ، وحدود ومعالم ، لا يتعداها إلا من
ظلم نفسه ، وسفه قدره ، ونسى ربه .

ولفظ « لعل » من الله تعالى : لا يفيد الترجى ، إنما يفيد التعليل
والغاية ، فهو بمعنى : « لتذكروا » ، إذ أن الترجى : هو توقع
حصول الأمر المحبوب ، وتوقع حصول الشيء يفيد الجهل به ، والجهل
على الله : محال .

(إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) .

الوفاء بالعهود في الإسلام والمحافظة على الإيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما ييلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) .

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الإسلام ومبادئه ، وذلك دليل قوى على مكانة العهود في الإسلام ، فقد أكد الله تعالى هذا الجانب بقوله : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود) ، وقوله : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) ، وهنا يقول : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) .

والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين ، والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به ، فيقول : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) . فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه ، فإنه لن يجترأ على نقض عهوده ، ولذلك جاء ختام الآية : (إن الله يعلم ما تفعلون) .

إذاً : فإدام الله هو الكفيل ، العالم بالفعل : سره وعلمه ، أوله وآخره ، صغيره وكبيره ، فكفى به كفيلًا ، وكفى به عليًا .

ثم تأتي الآية الثانية فتشبه ناقض العهد بعد توكيده : بإمرأة خرفاء ، ذات حماقة وسفاهة ، غزلت غزلا محكمًا متقنًا ، ثم نقضته نقضًا ، فذهب غزلها أدراج الرياح ، وضاع جهدها هباء منثورًا . . كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ، ويودي بمكانة الفرد ، مهما كانت الدوافع إلى النقض ، ولذلك سمي الله هذا الفعل : خيانة ، ودخلا ، وخديعة ، وغشًا ، فقال (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) . وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عددًا من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العدد أو العدة ، إنما المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة . . قال سبحانه جل من قائل : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) ، وقال تبارك اسمه : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقضى العهود بالمرأة الخرفاء السفهية ، فإن السنة الشريفة أنزلت « الغادر » يوم القيامة . . مكانة صحيحة من الذل والهوان .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر - بعد الإشرار بالله - أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ، ثم ينكث بيعته . فلا يخلعن أحد منكم بدأ ، ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر ، فيكون فصل بيني وبينه » .

وكنى بنقض العهد بشاعة : إنه يجعل صاحبه من أهل النفاق ، وكنى بالنفاق إنما أنه داء عضال ، ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ، قال صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى من خان » ، وقال أيضاً في رواية للإمام مسلم . « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » ، وفي حديث آخر : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أوتى من خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (متفق عليه) .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد ، والتي تمثلت على يدى الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن جابر رضى الله عنه قال : « قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ، فلم يجيء مال البحرين حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله عنه فنادى : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتينا ، فأتيته ، وقلت له : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لى كذا وكذا ، فحشى لى حثية ، فعددتها ، فإذا هى خمسمائة . فقال لى : خذ مثلها » (متفق عليه) .

• • •

إن الله تعالى أمرنا فى هذا المشهد القرآن الكريم بالوفاء بالعهد ، ونهانا عن نقض الإيمان بعد توكيدها .

والأوامر والنواهي : ابتلاء واختبار ، ولذا ختم الله هذه الآية
الكريمة بقوله تبارك وتعالى : (إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة
ما كنتم فيه تختلفون) .

وتعقيباً على الوفاء بالعهود ، والمحافظة على الإيمان نقول :
(١) النهى عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى ، فقد قال صلوات الله وسلامه
عليه :

« إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً : فليحلف
بالله ، أو ليصمت » . وفي رواية في الصحيح : « فمن كان حالفاً فلا
يحلف إلا بالله ، أو لبسكت » .

كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الإنسان بالأمانة ، فقد روى
أبو داود رضي الله عنه بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« من حلف بالأمانة فليس منا » .

ومن الآفات الشائعة أيضاً بين الناس : أن يبرأ أحدهم من الإسلام
إن فعل كذا وكذا .

فما موقف هذا من الله ، ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف
فقال إني بريء من الإسلام : فإن كان كاذباً ، فهو كما قال ، وإن كان
صادقاً ، فلن يرجع إلى الإسلام سالماً » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول : لا ، والكعبة ، فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله ، فأبى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حلف بغير الله فقد كفر . أو أشرك » (رواه الترمذى) .

(٢) الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً :

من الكبائر التي نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كاذباً ، فقد أخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم فقال : « اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع » .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه ، لقي الله وهو عليه غضبان ، قال : ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله عز وجل : إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً : أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكهم ، ولهم عذاب أليم » (متفق عليه) .

ثم تعال معي — يا أخا الإسلام — لنتمعن النظر في هذا الحديث النبوى الشريف الذى يبين فيه الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذباً فى سبيل أن ينال عرضاً دنيوياً فانياً لا قيمة له .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « من اقتطع حق امرئ مسلم يمينه ، فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة ، فقال له رجل :

وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ وإن كان قضياً من أراك » (١)
(رواه مسلم) .

وقد سمي الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها في النار ، ولذلك نظمها في سلك الكبائر من الذنوب قال صلوات الله وسلامه عليه : « الكبائر : الإشرak بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » (رواه البخارى) .

وفى رواية للبخارى أيضاً أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ما الكبائر ؟ قال : « الإشرak بالله ، قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس ، قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرئ مسلم » يعنى يمين هو فيها كاذب .

(٣) رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله - التى وسعت كل شئ - أنه لم يجعل اليمين مانعاً من فعل الخير ، فإذا حلفت يميناً ألا تفعل كذا ، ثم ظهر أن الخير فى فعله ، فلا تجعل يمين الله عائقاً ومانعاً من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذى هو خير ، وكفر عن يمينك ، وكفارة اليمين : هى كما بينها الله تبارك وتعالى فى قوله : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد : فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم) .

(١) الأراك : شجر ، والمراد بالقضيب هنا : فرع منه .

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فأت الذي هو خير ،
وكفر عن يمينك » (متفق عليه) .

وقال أيضاً — صلوات الله وسلامه عليه : « من حلف على يمين ،
فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير »
(رواه مسلم) .

هذه أمور ثلاثة عقبتنا بها على آية « الإيمان واليهود » . وذلك نظراً
لعموم البلوى ، وانتشار فروعها .

وكان أول هذه الأمور : النهي عن الحلف بغير الله .

وكان ثانياً : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً .

وكان ثالثاً : التكفير عن اليمين ، إذا كان الخير في غيرها . .

• • •

والآن نعود إلى تفسير آيات من سورة « النحل » فنقول :

مشيئة ، وحكمة ، وتوجيه

يقول الله تبارك وتعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن
يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون » . ولا تتخذوا
إيمانكم دخلاً بينكم ، فزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم
عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم » . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ،

إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

واعلم يا أخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أنه أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ، ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير ، وطريق الشر ، فليس لإنسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله أن يلقى باللائمة على مشيئة الله . .

قال سبحانه فى حق الإنسان : (فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً ، وإما كفوراً) وفسر السبيل بقوله : (وهديناه النجدين) بعد ما قال : (ألم نجعل له عينين . ولساناً وشففتين) ، وفسر (النجدين) بقوله : (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) ، وأرشد إلى الخير وحذر من الشر ، فقال : (قد أفلح من زكاه . وقد خاب من دساها) ، وزاد هذه القضية وضوحاً وإظهاراً وقال : (وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى) .

ثم نادى بعد ذلك فى عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : (وقل الحق من ربكم : فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر) ، ثم بين مدى رحمته بعباده فقال : (إن تكفروا : فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا : يرضه لكم) .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له : ما بال الله : يريد ثم يعاقب ؟ فقال الإمام كلمة تكتب بمداد من الذهب ، قال :

« الله أراد بنا ، وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا ، وأظهر ما أراد منا .
فاحتجنا بما أراد بنا ، وتركنا ما أراد منا ! »

تلك كلمة حق نوجهها إلى « المفلسين » الذين أتخدّموا على المخالفات
الشرعية ، تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهرياً ، ويشربون
ويلعبون ، وعلى الأعراض يعتدون ، وفي الحياة يعبثون ويبيعون ، ثم
بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب . . !

فيذا كلمت أحدهم في ذلك ، فلا تسمع منه إلا جدالاً في الله بغير
علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ! !

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة ، والإضلال
والهداية إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه ، قال سبحانه .
(فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى * وأما
من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

ولذا يقال لهذا « النادم » يوم القيامة : (بلى : قد جاءتك آياتي ،
فكذبت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين) .

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بي هكذا . . قل له :
اطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً ؟

قل له : ألم يرسل ربك إليك رسولا ، يبين لك الحلال والحرام ؟
قل له : ألم ينزل إليك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ؟ وفيه تبيان لكل شيء ؟

قل له : ألم يهبك الله عقلاً تميز به الخبيث من الطيب ؟

ثم قل له - بعد ذلك - ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ ؟

قل له : ألم يتجاوز ربك - بفضلہ وكرمه - عن الخطأ والنسيان ، وما استكره الإنسان عليه ؟

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ؟

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل : وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال رب العزة : وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ما داموا يستغفرونى ؟ ! !

إذا : فقله تعالى : « ولكن يضل من يشاء ويهتدي من يشاء » لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال - وذلك كما بينا في الآيات السابقة - إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف ، لا صفة التزام وجبر .

« إن الله تعالى فرض فرائض فأدوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت على أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها » ! !

۔ ۔ ۔

وبعد هذه الآية الكريمة تعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد ، ونهى عن اتخاذ الإيمان خديعة ومراوغة . . إذ أنه سيترتب على ذلك زلة

الأقدام بعد ثبوتها . . هذا في الدنيا : أما في الآخرة فعذاب أليم ، وخزى
عظيم .

ثم ينهى عن أن يشتري الإنسان بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، فيخالف
بذلك ربه ، لأن ما في الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح
بعوضة إذا قيس بما عند الله : (إن ما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم
تعلمون ما عندكم ينقد ، وما عند الله باق) .

ألا إن كل شيء هالك إلا ما عند الله ، وما عنده لا يناله إلا الصابرون
على طاعته ، المقيمون لشعائر دينه : (ولنجزين الذين صبروا أجرهم
أحسناً ما كانوا يعملون) .

المساواة بين الرجل والمرأة في الأعمال والأجزاء

ثم يقول الله تبارك وتعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو
موثّق ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون) .

ما أعظم العدالة الإلهية ، وما أجل قدرها ! وما أفضل الكرم الرباني .
وما أرفع شأنه !

يا من يجيب العبد قبل سؤاله	ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه	ستر القبيح وجاد بالإحسان
أصبحت ضيف الله في دار الرضا	وعلى الكريم كرامة الضيفان

يعفوا المملوك عن النزيل بساحهم كيف النزول بساحة الرحمن ؟
وأنا المسي وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعبيد الجاني ؟
يا من إذا وقف المسىء بيبابه ستر القبيح وجاد بالإحسان
وعد من الله - والله لا يخلف وعده - لمن عمل صالحاً ، لا فرق في
ذلك بين الذكر والأنثى .

والعمل الصالح : هو كل ما جاء موافقاً لأوامر الله ورسوله .
ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين .

أحدهما : في الدنيا ، والآخر يوم القيامة .

أما في الدنيا : فحياة طيبة ، فيها سكينه ، وقناعة ، ورضا من الله ،
وعن الله ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

وأما في الآخرة : فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون .

والإيمان : شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنياً على
الإيمان ، قال سبحانه : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن) .

وتظهر ثمرة الإيمان في الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ،
والصبر عند البلاء . ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله .

وكان داود عليه السلام يقول : « اللهم إنى أسألك أربعاً ، وأعوذ
بك من أربع : أسألك لساناً ذاكرأ ، وقلبأ شاكراً ، وبدناً على البلاء
صابراً ، وزوجة تعيننى على دينى ودنياى : وأعوذ بك من ولد يكون

على سيداً ، ومن مال يكون وبالا على ويتمتع به غيرى ، ومن جار
سوء : إن رأى منى خيراً أنكره ، وإن رأى سوءاً نشره ، ومن زوجة
تشينى قبل المشيب !! !

فبادر يا أخى بالعمل الصالح ، لتنال الوعدين الكريمين فى الدنيا
والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى . ما أجمل الصلح
مع الله !! !

ألا وإن الصلح مع الله : طريق النجاة .
واستغفر الله ، نجد الله غفوراً رحيماً ، وتواباً كريماً ، وعفواً حلماً .

خاتمة

(نسأل الله حسن الخاتمة)

بناء النفوس رسالة صعبة ، قام بها الأنبياء ومن نهج نهجهم من
الصالحين المؤمنين ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وقد جعلنا هذا الكتاب إرشاداً وتوجيهاً للسالكين ، الذين يدعون
ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . .

قدمنا فيه الحديث عن قضايا تأخذ بالأيدى إلى طريق رب العالمين .
قدمنا فيه أبواباً عن الإيمان ، والإخلاص ، والنفاق ، والرياء ،
والوفاء بالعهد ، والثبات على المبدأ وغير ذلك ، ثم سلطنا طريقاً قرآنياً ،
ومنهجاً نبوياً فى تفسير آيات بينات جعلناها فى إطار « نظرات فى سورة

النحل » ، وذلك لما اشتملت عليه تلك السورة الكريمة من آيات دالة على توحيد الله وعظمته وكبريائه ، وقدرته وعظيم آلائه .

فبالإيمان والإخلاص والتوحيد : تبنى النفوس ، وبالبعد عن الرياء والنفاق والشرك : تشيد صروحها .

ولقد ختمنا هذا المطاف الفياض بتلك الآية الجامعة : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) .

ثم أتبعناها بالحث على الوفاء بالعهود والمحافظة على الإيمان ، وحذرنا من اليمين الكاذبة . والحلف بغير الله ، وبيننا مدى الخطورة المترتبة على المخالفة فى ذلك ، مستأنسين بقول الله تبارك وتعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ما تفعلون) إلى آخر هذه الآيات الكريمة ، التى ترشد الإنسان إلى ما فيه الخير والنفع له فى الدنيا والآخرة .

ألا وإن أول لبنة فى بناء النفوس : هى التوبة النصوح ، والرجوع إلى الله تبارك وتعالى ، والحشية منه فى السر والعلانية ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

أمل ورجاء

لذلك : فإن أملنا في الله كبير أن يوفق كل قارئ لهذا الكتاب أن يقف على باب الله مردداً قوله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير) .

• • •

فاللهم اعط نفوسنا تقواها .. وزكها .. أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين واحشرنا في زمرة من يارب العالمين .. آمين .

فهرس الكتاب

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣	الإهداء	٨٢	خطرات في الحب الإلهي
٥	مقدمة	٨٤	وقفة تأمل
١٠	العقيدة وأثرها في التربية	٨٦	ولا يظلم ربك أحداً
١١	التربية في مكة	٨٨	فضل الله على عباده
١٥	كل مولود يولد على الفطرة	٩٩	العسل النحل وفوائده
١٦	العقيدة الصحيحة	١٠٤	إلهي ! ما أعظمك
١٨	العقيدة ومراقبة الله تعالى	١٠٥	العقاد ، والرد على المبشرين
٢٠	الداء والدواء	١١٢	الإيجاد والعدم
٢٠	الإيمان والإخلاص	١٢٥	هذا خلق الله
٢٣	إنما الأعمال بالنيات	١٢٨	عالم الطير
٢٧	الإخلاص في الجهاد	١٣٣	لمحة قرآنية
٢٩	النفاق	١٣٨	المحكمة الإلهية العليا
٣٥	كلمة عن الوفاء	١٤٠	صاحب اللواء المعقود
٤٤	الرياء وأثره في النفوس	١٤٣	قواعد البناء القوية
٥٥	الإيمان وبناء النفوس	١٤٥	العدل ونتائجه ، والظلم وعواقبه
٦٠	سورة النحل ووحداية الله تعالى	١٥١	صلة الرحم
٦٤	عالم الحيوان	١٥٦	الظلم ظللمات يوم القيامة
٧٠	عالم النبات	١٦١	الوفاء بالعهود في الإسلام
٧٧	نعم الله على خلقه	١٦٧	مشيئة وحكمة ، وتوجيه
٨٠	العلم الحديث ووحداية الله تعالى	١٧٣	خاتمة

رقم الايداع ٣٧٥٢ / ٧٩

الترقيم الدولي ٩ - ٩١ - ٧٠٤٩ ISBN

طابع المكتب المصري الحديث